الطبّ عند القدماء المصريّين

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٥٨

تأليف

د.پُول غليُونجي

تقديم ومراجعة

د. جلال عبد المنعم يحيى

الكتاب: الطبّ عند القدماء المصريّين

الكاتب: د.يُول غليُونجي

تقديم ومراجعة : د. جلال عبد المنعم يحيى

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

غليُونجي، د.يُول
الطبّ عند القدماء المصريّين / تأليف : د.يُول غليُونجي ، تقديم ومراجعة: د. جلال عبد المنعم يحيى
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٦٤ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٥ – ٨٠٢ – ٤٤٦ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٨٣٣ / ٢٠١٨

الطبّ عند القدماء المصريّين

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

"إنما الحق يدوم ... وتستطيع أن تقول عنه: هذا تراث أبي"

بتاح حتب

إهداء وشكر

أقدم هذا الكتيب إلى أصدقائي طلبة كلية الطب بجامعة عين شمس آملاً أن يعطفوا غداً على طب اليوم كما نعطف اليوم على طب الأمس.

وأقدم شكري لمصلحة الآثار المصرية وللسيد كبير أمناء المتحف المصري وللآنسة أمينة مكتبته لما أبدوه من المعاونة وقدموه من التسهيلات. كما أشكر السيد أمين متحف الفاتيكان بروما لإهدائنا صورة من تمثال أوزاهورسنت الموجود به (شكل ٢) والسيد الدكتور يحيى العلايلي مدير شركة كوم أمبو لإهدائنا اكليشيه شكل ٣٦، وقد قام قسم التصوير بالمتحف المصري والسيد عبد العزيز نور رئيس قسم التصوير بكلية طب جامعة عين شمس بمجهود شاق في تجهيز الصور التي تزينه.

ويسرني أن أشكر بصفة خاصة السيد الأديب الدكتور علي درويش المدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس لمعونته الصادقة ولمجهوده القيم في كل خطوة من تأليف هذا الكتاب.

تقديم

ظلت الحضارة المصرية القديمة شبه مجهولة فيما يتعلق بأسلوب الحياة وبمظاهرها المختلفة فترة طويلة من الزمن، وذلك بسبب عدم المعرفة بالكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية) حتى عام ١٧٩٩ م حيث فك العالم شامبليون رموز حجر رشيد Rosetta Stone ... وتمثلت مصادر البحث عن التاريخ المصري القديم في أربعة مصادر أساسية هي كما يلي:.

- البرديات وما اشتملت عليه من معلومات.

- الصور والكتابات المنحوتة على جدران المعابد والمقابر والمنازل والأواني المزخرفة والتماثيل القديمة.

- المومياوات والهياكل العظيمة التي اكتشفت بكميات كبيرة في مقابر المصريين القدماء.

- المؤرخون اللاحقون الذين كتبوا عن مصر القديمة مثل هيرودوت الإغريقي، وتيودور الصقلي الذين أغنوا المصادر للباحثين في هذه الحقبة من التاريخ.

أما عن الطب عند قدماء المصريين؛ فقد اقتصر على كهان المعابد، فكان الكاهن هو الطبيب، وكان المعبد من الأهمية بمكان حيث التحقت مدارس الطب بالمعابد الكبيرة وكان يُدرس فيها العلوم الطبية والنباتات الطبية.. وكذلك ألحق بالمعابد مع المدارس الطبية أماكن للعلاج والتداوي، وكان علاج المرضى يتم في المعابد، فكان الكُهان يقومون بالعلاج ويلبسون جبة بيضاء ويحلقون شعورهم..

ومن أعمالهم أنهم كانوا يُضمدون الجراح ويجبرون الكسور، وكانوا يستخدمون لذلك بعض الآلات الجراحية التي توصلوا إليها.

أما عن الفلسفة الطبية المصرية القديمة فقد اقتنع المصري القديم بأن لكل عضو إله يحميه؛ كما قالوا بأن الهواء يدخل الجسم عن طريق الأنف والأذن؛ واعتقدوا بأن أصل الروح في القلب والمخ؛ وبأن الروح ستعود للجسم فاهتموا بعلم التحنيط الذي يتحتم قبله أن يجيدوا علم التشريح؛ كما قسموا الآفات الجراحية إلى عفنة وطاهرة؛ ودمجوا علم الكيمياء مع علم الصيدلة في علم واحد وسموه علم الأدوية. ومن النصائح التي دعا إليها الأطباء المصريون القدماء ما يلي:

- حثوا على الاستحمام اليومي وإزالة شعر الجسم.
- شجعوا على الحمية والصوم وتعاطي شربة مسهلة شهرياً.
- شجعوا على الزواج المُبكر.

- حرموا الإجهاض ولحم الخنزير.

- نصحوا بالختان وحثوا عليه.

- وقفوا على موضوع غش اللحوم ولم يتهاونوا فيه.

- كما اهتموا بالصحة الغذائية فكانوا يُكثرون من تناول الخُبز حتى سموا "أكلة الخبز" وكان خبزهم يتكون من عجين خشن مع كمية من غلاف الحبوب والتين وحُبيبات الحنطة والشعير.

- طعام الأطفال كان يتكون من خُبز الذرة واللبن والزيت.

عرف الطب المصري القديم المرض بأن أسباب المرض له أسباب أخرى غير الغيبيات، وأسباب مادية تحتاج لعلاج مادي، فكانوا يُجرون عمليات تضميد الجروح وتجبير الكسور، وكذلك عالجوا الأورام بالإزالة واستخدموا الكيّ والعلاج بالبرودة وكانت أدواتهم من حجر الصوان. ولم تسمح طبيعة الأرض والمناخ في مصر بأن يكون هنالك الكثير من النباتات الطبيعية التي تنمو أصلاً في مصر، فعلى سبيل المثال لم يكن الرمان من النباتات الأصلية في مصر، غير أنه ذكرت زراعته بكثرة وافرة في مصر عام ١١٠٠ ق.م ومع ذلك اهتم الطبيب المصري القديم بدراسة النباتات البرية والمزروعة ودرسها من حيث صفاتها والأجزاء التي من الممكن الاستفادة منها وكيفية تحضير الجزء الفعال، وقد ورد في

البرديات المصرية أنهم كانوا يجهزون الأدوية على هيئات وأشكال مُتعددة منها ما يلي:

أمزجة سائلة، وحبوب، ولعوقات، ومغليات، ومنقوعات، وسعوطات، وحقن شرجية، وغرغرات، وقطرات للعين وخلافه. كما أضافوا على أدويتهم العسل أو الحليب أو البيرة أو السوائل الطبية؛ وكانوا يتبعون أساليب مُختلفة ومُبتكرة في تحضير هذه العقاقير منها: التحميض، التجفيف، الغلي، الترشيح. وكانوا يحفظون أدويتهم في أوعية زجاجية وفخارية بشروط خاصة صحية، وكانت عقاقيرهم من أصول مُختلفة؛ فمنها عقاقير من أصل نباتي مثل: الينسون، بذر الكتان، بذر الخروع، البصل، بذر الخس، البابونج، التوت، الثوم، الحنظل، حبة البركة، الحناء، الخشخاش، الخروب، الخلة، الزعفران، السمسم، الشعير، قشر الرمان، القرفة وغيرها.

وعقاقير من أصل حيواني: مثل غُدد الثور، الجراد، الكبد، الدم، عسل النحل، دهن الإوز، لبن الحمارة، رحم الكلبة ودمها وروثها.

وعقاقير من أصل معدني: برادة وخلات الحديد، حجر الجير، الرصاص، الطباشير، جبس، كبريتات النحاس، كربونات الصوديوم، وغيرها.

ومن أمثلة علاجهم كما ورد في البرديات القديمة:

أوجاع الرأس: الحنظل، الخشخاش، الكمون وبذر الكتان..

احتقان العين: حنظل أخضر على ظهر العين، صدأ الرصاص فوق الجفن.

الرمد الحبيبي: حنظل، سلفات النحاس فوق الجفن، ورق الخروع.

عضة الإنسان أو الحيوان: شمع، نعناع فلفلي كدهان، صدأ الرصاص.

الدمامل والخراج: لبخات مركبة من البلح والشمع، وزيت الخروع والحنظل.

البرديات الطبية أو القراطيس الطبية عند قدماء المصريين:

البرديات هي الأوراق المكتوبة على ورق البردي، وقد حوت أبواباً عن الفروع المختلفة للطب: الباطني، والجراحي، والنسائي، وأمراض الفم والأذن والعين. وكذلك أسماء للأدوية وتأثيراتها في الجسم وما صُنع منها ومقادير استعمالها وكيفيته. ومن أهم هذه البرديات: بردية جورج ايبرس، وسميت باسم العالم الألماني المختص بالآثار والذي وجدها سنة ١٨٢٢م. وقد حفظت في إحدى الجامعات الألمانية (جامعة لايبزيغ)، ويعتقد أنها كتبت في زمن النبي موسى عليه السلام في منطقة هليوبوليس.

تحتوي هذه البردية على بقايا من الرسائل من عصر أكثر قدماً من التاريخ الذي كتبت فيه، شأنها شأن بقية البرديات. يبلغ طول هذه البردية عشرين متراً وعرضها ٣٠ سم وتحتوي ٨١١ وصفة طبية وبها ٢٢٨٩ سطراً، وهي تحوي وصفاً دقيقا لأجزاء جسم الإنسان. وقد أوضحت ما بها من معلومات معرفة المصريين القدماء لوظيفة القلب والأوعية الدموية، وقد كانت هذه البردية غنية بصيغة الأدوية وتركيبها مما عزز الاعتقاد بأن الجانب الصيدلي عند قدماء المصريين لقي اهتماماً كبيراً حتى فاق ذلك في الحضارة اليونانية على عِظم إنجازها، وقد ضمت هذه البردية وحدها ما يُناهز ٧٠٠ دواءً بما يُقارب ٨١١ وصفة.

ترجع معرفة المصريين الأوائل بتكوين الجسم الآدمي مما كانوا يقومون به من تحنيط الموتى بغرض الحفاظ على جثمان أصحابها، ولم يكن الطبيب المصري مُحترماً من بين المصريين وحدهم بل ذاع شأنهم أيضاً في البلاد المجاورة لمصر؛ كما تذكر المخطوطات المصرية القديمة أن أحد الكهنة الكبار إمحوتب يُعتبر مؤسس علم الطب في مصر القديمة، كما يُعتقد أنه مُبتكر الكتابة الهيروغليفية، مما جعل المصريون القدماء يُقدسونه في العصور المتأخرة من عصر الفراعنة بأنه "إله الشفاء".

في عهد البطالمة نشأت عبادة أمحوتب، وترى آثاره في العديد من المعابد. كما كان المرضى يذهبون إلى تلك المعابد و"الزوايا" المقدسة التماساً للشفاء، وقلدها الإغريق وما يُسمون "أسكلبيونس". وفي

الإسكندرية خلال عهد البطالمة وصل علم الطب إلى ذروته؛ فكانت الإسكندرية مركزاً للعلوم والثقافة والطب في عصر البطالمة وكانت مدرسة لتعليم الأطباء. وقد أثرت كثيراً على العلوم الطبية وطرق العلاج في بلاد اليونان وبالتالي على الطب في أوروبا.

كما كان بمكتبة الإسكندرية القديمة، مخطوطات في الطب ضاعت كلها أثناء حريق المكتبة الشهير. كما يوجد من مخطوطات البردي من عهد قدماء المصريين **١٣** مخطوطة تتحدث في الطب، كما عثر على عدد كبير من القشافات الحجرية والفخارية التي تتحدث في موضوعات طبية. وهي تحتوي على وصف دقيق لكل حالة من الحالات المرضية، كما تحتوي على وصفات وعقاقير للعلاج. وكذلك تذكر مخطوطة بردي اللاهون موضوعات العلاج البيطري. كما كان المصري القديم يعرف الفرق بين الحالة الصحية وحالات المرض، وكان يعتبر أن المرض يعود إلى عدم قيام عضو من الجسم بوظيفته مما يكون مصحوباً عادة بآلام.

كما عرفوا أنواعا كثيرة من الأمراض مذكورة في النصوص الطبية، وهي لمُختلف أعضاء الجسم، ويُرجع المصري القديم الكثير من تلك الأمراض إلى اختلال في نظام الأوعية ونشأة وانتشار مواد تسبب الآلام. كما كان يُفرق بين الأمراض الخارجية والأمراض الداخلية؛ فبالنسبة إلى الرأس فكان يوجد وجع الدماغ والصداع. وحظي علاج العيون بقسط كبير من الاهتمام ومن ضمنها العمى، والأذن (الخرس) وأمراض الأسنان

واللسان.. أما بالنسبة لأعضاء الجسم فكان الطبيب القديم يقوم بعلاج التصلب والاعوجاج والالتهابات والأورام.

وبالنسبة للأمراض الداخلية فتُعالج أمراض الصدر والأعضاء الداخلية مثل الرئة والكبد والمعدة والقلب، والبدن والأمعاء، ومخرج البراز والمثانة. كما كانت تحدث حالات توتر الهضم والإصابة بطفيليات، وحالات نزيف، كما وصفت حالات للسعال؛ كما ذكرت المراجع الطبية كثير من حالات الإصابات. واحتاج كسر العظام والجروح من الطبيب معرفة بالجراحة. وكان معالجة عضات الثعبان وقرص الحشرات ومعالجة الحروق من الأشياء اليومية. وكذلك بالنسبة إلى علاج الأورام والالتهابات. وعند المرأة كانت هناك مُعالجة خاصة تتعلق بالرحم وبعض أجزاء جسمها الأخرى، وعلاج الأطفال من الكحة والسعال. كما ذُكرت حالات عدم الارتياح والقلق أو الإصابة بحمى، وعلامات الشيخوخة فقد اعتبرت أمراضا.

انقسم ظهور المرض عند قدماء المصريين إلى قسمين هُما:

المرض العادي والمرض الناشئ عن السحر، ومن الأمراض غير الطبيعية فكانت تعود إلى فعل إله (على الأخص سخمت أو عفاريت، وأرواح أموات، وكان يُعتقد أنها تُصيب المرء عن طريق السحر؛ فكانت تُعتبر أنها تحل بالمرء عن طريق "نفس" أحد الآلهة أو أحد الشياطين على فتحات جسمه من جهة اليسار).

وكانت حالات المرض ترى على أنها عقاب لمساوئ اقترفها الإنسان أو انتقام روح ميت أو إنسان يعيش. وأما حالات المرض الطبيعية فكان المصري القديم يُرجعها إلى اختلال في الجهاز الهضمي؛ فكان يعتبر أن الغذاء إن لم يتم هضمه سليماً يتحول إلى "مواد ضارة ومُسببة للألم" وتنتشر في الجسم عن طريق الأوعية، وقد تظهر لها أعراض مثل الإمساك، أو الانتفاخ، أو التصلب..

كما يُمكن تأثير مرض جسمي على مرض نفساني وبالعكس؛ فكان يعتقد أن مثلاً أن الحزن والغضب يُؤثران على القلب وحالاته، كما أن اختلال هضم المعدة قد يُؤدي إلى الخوف. كما كان من عتاد كل طبيب عدة من الأربطة، واستخدم المصري القديم لتلك الأربطة من التيل مُختلفة الأنسجة والطول والعرض، ومن تلك الأربطة ما يُسمى "فيتت" وهي ألياف نباتية؛ وكان هذا الرباط يُغمس في المادة العلاجية مثل عسل نحل ومرهم أو زيت، وكان الرباط يُستخدم أحياناً جافاً. كما كانت الألياف النباتية تُستخدم كضمادات. وتذكر المخطوطات نوعين من ألياف "فيتت" و"فيتت- إن – ديبت" أي فيتت من نبات الديبت.. ويبدو أن الطبيب المصري القديم عرف "جهاز استنشاق" وتوجد مخطوطة تصف كيفية صناعة هذا الجهاز الذي كان يحتوي على صخور ساخنة، وعقار طبي، ورأس وقصبة من الغاب، وكان يُستخدم لعلاج الكحة والسعال.

كما كانت النصوص البردية الطبية تُستخدم كعوامل مُساعدة مثلها مثل الأدوات الطبية فكانت تُحفظ في أكياس من الجلد...

ومما سبق نجد أن قدماء المصريين كانوا متفوقين كثيراً في شتى علوم المعرفة ومن ضمنها علم الطب الذي تفوقوا فيه وبرعوا في شتي علومه المُختلفة.

وبسبب أهمية ما قام به أجدادنا قدماء المصريين جاء دور هذا الكتاب القيم الذي يُلقي الضوء على جُزء كبير مما قام به قدماء المصريين في مجال الطب؛ فهو كتاب كنز يحوي بين دفتيه الكثير من حكم وأقوال أجدادنا القدماء، لذا اغتنم الفرصة وانهل من هذا المعين القيم واظفر بما فيه من علم قيم.

د. جلال عبد المنعم يحيى

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أوجدنا في هذه الأرض الخصبة التي أنجبت حضارة لم تفتأ تذهل العالم بما حققته، وتثير إعجابه بروحها المتجددة، هذه الروح التي سمحت لها بمسايرته بل بمسابقته في كل ميدان، بالرغم من جميع المحن التي ألمتْ بها.

ومن بوادر هذا التجديد أن تعيد كليتنا بإرشاد مدير جامعتنا السيد الأستاذ الدكتور أحمد بدوي، وعميدنا الأستاذ الدكتور عبد المحسن سليمان – تقليداً قديماً، كان قد أهمل إلى حد ما وهو دراسة تاريخ الطب. ولقد وجدت منهما تشجيعاً ونصائح، ومن السيد المدير إرشاداً وتعليماً لولائهما لما تمكنت من القيام بهذه المهمة اليوم. ولا يفوتني أن أذكر أن أول من بث في حب دراسة الطب القديم أستاذان جليلان من أساتذتي: أولهما أستاذنا جميعاً الدكتور سليمان عزمي الذي قد يذكر أنه اصطحبنا يوم كان عميداً لكلية طب قصر العيني إلى متحف الآثار ليرينا ما يحتويه من الثروة التاريخية لفرع تخصصنا، وثانيهما الأستاذ الأديب والمؤرخ المجدد الدكتور محمد كامل حسين.

وإني لفخور – أن قدر لي أن أفتتح دراسة تاريخ الطب في كليتنا وهي "قاعة حياة" جامعة عين شمس التي هي – من حيث الاسم

والمكان – وارثة مدرسة "أيونو" الفرعونية التي ترجمها الإغريق بهليوبوليس.

وكانت مدرسة "أيونو" أو هليوبوليس – أول جامعة في تاريخ الإنسان، وقد تتلمذ على أساتذتها أكبر عباقرة العالم القديم، ونشأ فيها أمثال صولون وليكورج مشرعي أثينا التي قيل عنها إنها مدرسة العالم. وشغل فيها رئيس الكهنة "إيمحوتيب" أرفع المناصب، وحصل على أعلى الألقاب (شكل ١).

وإذا كانت دراسة تاريخ الطب أهملت إلى حد ما زهواً بما حققه العلم الحديث، الأمر الذي أنسانا بعض الشيء ما ندين به إلى الماضي.. فإن كليات العالم جميعاً قد عادت إلى استئنافه بنشاط وهمة وعنيت الدول بإنشاء الجمعيات القومية المعنية بتاريخ الطب، وكذلك قامت جمعية دولية استطاعت بالرغم من حداثة عهدها عقد عدة مؤتمرات هامة.

على أن الاهتمام الذي أعير هذه الدراسة قد تغير وجهه على مر العصور.. في القديم، كانت دراسة كتب الطب القديمة غاية في ذاتها، إما أنه كان يظن أن العلم كان قد أنزل على القدامى.. وأنه في طريق النسيان بفعل الزمن.. إما للاعتقاد بأن المنطق المجرد يعلو على تأمل الحوادث تأملاً نزيهاً، فقد كان الطب في هذا الوقت خالياً من الفضول يعتمد على النصوص، إلى درجة أن الحيد عن آراء هيبوقراط أو جالينوس

كان يعد أخطر من اقتراف جريمة، وقد حدث نفس الشيء عند قدماء المصريين، فإن ما حققه الطب من رقي وابتكار طوال الدولتين القديمة والوسطى قد توقف في الدولة الحديثة من جراء ما اتسم به الطب من "المدرسية" في المنهج، ولنذكر في هذا الصدد ما كتبه ديودور الصقلي (١ ر ٨٢): "إن الأطباء المصريين يصفون العلاج للمرضى وفق ما وصل إليهم من تعاليم القدامى من الأطباء الذائعي الصيت ولا حرج عليهم إن هم لم يوفقوا في القضاء على العلة، وعلى العكس من ذلك فإن تفريطهم في تطبيق تلك التعاليم كان يعرضهم إلى المحاكمة التي كانت عقوبتها أحياناً الإعدام".

ومع ذلك أفليس طبيعياً بالنسبة لمحترف مهنة من المهن أن يعكف على دراسة تاريخ الفرع الذي تخصص فيه والذي جعل منه مبعثاً لحياته.... أقول أليس طبيعياً أن يعكف على دراسته بنفس الحنو الذي يشعر به الإنسان حين يشهد طفله وهو يخطو خطواته الأولى أو يسمعه وهو ينطق بأول كلمات له.

أنني أيها السادة أذهب إلى أبعد من ذلك لأنني أجد في هذا الحنو على الطفولة قيمة تفوق مجرد التأثير . أرى فيه تكشفاً لفضول حقيقي نحو ميلادنا نحن الذين نعتبر أنفسنا بالغين وسوف يقال عنا إننا كنا أجنة ... وهكذا تجدونني أتعرف في الطفل على الإنسان القديم كما أتعرف في الشخص البالغ على الإنسان الحديث...

نعم، إن دراسة تاريخ الطب أصبحت أنجع الوسائل لتحليل نظرة الإنسان إلى الكون وتتبع تطورها خلال العصور المختلفة، ولدراسة حضارته ومثله العليا ومخاوفه وعقائده وإمكانياته في تحقيقها.

فإن الإنسان البدائي شعر – ولا شك – بحاجته إلى العلاج قبل أن يدرك أنه إنسان بوقت طويل، فكما قال أستاذنا الدكتور جورجي صبحي مستهلاً إحدى محاضرته: "إن أول صرخة ألم انطلقت من غضون الغابة كانت نداء إلى طبيب".

وهنا ينبغي التمييز بين فن العلاج وعلم الطب، وقد كانا منفصلين بالنسبة لإنسان المغارات، ويبدو أنهما لا يزالان كذلك بالنسبة لعدد كبير من المثقفين ممن يعتقدون بوجود مواهب معينة لدى بعض الناس يستطيعون بها أن يمنحوا الشفاء، ويفضلون عن طيب خاطر إتباع أوامرهم على الاستجابة للنصائح التي يسديها الطبيب ... وهذا الاتجاه كان من الشيوع في العصر القديم إلى حد أن سترابو Strabo يروي أن المرضى في ممفيس وبابل كانوا يعرضون في الطريق ليلتمسوا نصائح عابري السبيل. ولا شك أن فن العلاج وجد قبل الإنسان العاقل Homo sapiens وقبل أن تؤدي حاجات إنسان العصر الحجري الحديث، وهو عصر الزراعة، إلى نشأة علم الفلك والهندسة بوقت طويل، بل قبل اختراع الزراعة نفسها، وقبل أي نوع من أنواع النظم.

ولم يحاول هذا الفن أن يصبح علماً إلا بعد وقت طويل بالتأثير العكسي لعاملين هما:

أولاً: التجمع التدريجي للملاحظات والتجارب التي لم يستطع الإنسان أن يحفظها جميعاً، فجمعها على شكل نظريات عامة.

ثانياً: الخوف من المجهول الذي حض الإنسان على محاولة تفسير الكون، وقد أثرت تفسيراته – التي كثيراً ما تعدلت، والتي كانت مصطبغة دائماً بالعقائد الدينية – أثرت هذه التفسيرات في النظريات الطبية، ومنحتها طابعاً ميتافيزيقياً دينياً متسماً بالعقيدة والجمود، بحيث كان الخروج عن هذه الحدود محفوفاً بالمخاطر.

وإذا كان الفكر الطبي في عصر من العصور يتأثر حتماً بالنظرة السائدة إلى الكون، فاسمحوا لي أن أقول إنه لم يكن في وقت من الأوقات سوى إفراز للدين والفلسفة المعاصرين.

وإنني آخذ في هذا الصدد على المؤرخين اكتفاءهم في بحوثهم ومؤلفاتهم بسرد تاريخ المعارك والفنون، بدون أن يفردوا فصلاً للطب الذي هو انعكاس إنساني لملمات العصر ومثله واحتياجاته من ناحية، وما حققه من ناحية أخرى. وأجمل دليل على الفائدة التي جنيت من مثل تلك الدراسات أن نظرة الإنسان البدائي – الذي كان لا يزال يخضع لسلطات فوق العادة – ساعدت علماء النفس المحدثين على تفهم

الكائن البشري الذي لم تؤد البحوث الموضوعية إلى تفسير كنهه بسبب ما يكتنفه من غموض ومن غرائز موروثة.

وفي جو هذا الرأي – أي أن الطب ما هو إلا مرآة لحضارة قوم – وبعد هذه المقدمة المسهبة، سأحاول الكلام عن الطب عند قدماء المصريين، مستميحاً علماء الآثار عذراً إذا انتفعت بجهودهم وإذا أخطأت في سرد تفاصيل علمهم المحفوف بالصعاب.

المؤلف



(شكل ١)

المحاضرة الأولى

من البداية حتى عصر الفراعنة

إن ما نعرفه عن تاريخ مصر لا يتخطى مع الأسف عهد مينا مؤسس الأسرة الأولى وموحد شطري الوادي. إلا أن الحضارة العظيمة التي ازدهرت في عصره لم تكن وليدة وقتها، وإنما جاءت ثمرة لجهود عهود طويلة قدرها بعض المؤرخين تسعة وخمسين قرناً، تمتد من أول العصر الحجري إلى اختراع الكتابة والنحو والحساب والهندسة والفلك. وكلها علوم كانت قد وصلت في عهد مينا إلى درجة كبيرة من الرقي. فقد أتاحت تلك الحقبة الطويلة للعلماء وضع التقويم الشمسي الذي اكتشفه وطبقه المصريون سنة ٤٢٤١ ق.م، والذي لا يزال يستعمل حتى الآن بعد التعديلات التي أدخلها عليه يوليوس قيصر ثم البابا غريغوريوس.

أما عن الطب فليس لدينا من الوثائق عنه في هذه الفترة التمهيدية الطويلة سوى ما وجد من الكسور والجبائر في بعض المقابر التي ترجع إلى ما قبل الأسر، ولا نعرف عنه سوى ما يمكن استنباطه من المسلك الذي سلكه في كل الحضارات الزراعية المعروفة، لما في تلك الحضارات من التشابه في عقائدها وطقوسها ومراسمها وعاداتها، مهما كان تباعدها في الوقت أو المكان.

وفي دراسة هذا الطور الأول من أطوار التاريخ الذي سبق أي تدوين للحوادث أو المعلومات يمكن الاستعانة بالوسائل الآتية:

أولاً: ما نلحظه من تشابه في تتابع حلقات التاريخ وأطواره بالنسبة للشعب الواحد في عهوده المتتالية، وبالنسبة لشعوب معاصرة تختلف من حيث درجة التخلف أو التقدم...

ثانياً: التشابه بين تطور ذهن الإنسان خلال الفترة الممتدة من الطفولة إلى البلوغ من جهة، وتطوره من عهد الحلقة المفقودة إلى الإنسان المعاصر.

وليس من شك في أن الإنسان البدائي – عند أول إدراكه، وحين وجد نفسه محاطاً بقوى تبدو له تارة كأنها تخبط خبط عشواء، وتارة أخرى توحي إليه بأنها تخضع لنظام دقيق، وتسعى نحو هدف ثابت – ليس من شك في أن تفكيره الطبيعي حضه على أن ينسب كل حدث من الأحداث إلى إرادة خاصة، وأن يؤله كل ما يحدق به من قوى ... ومن هنا خلق أول الأديان وهو الروحانية (Animisme) الذي يرى روحاً في كل شيء ... بل أكثر من ذلك، فإن (Young) يرى أن الإنسان عندما بلغ أول درجة من درجات الوعي لم يميز في بدء الأمر بين الحياة والجمود، ولا بين ذاته ومحيطه، ولا بين الحياة والموت، بحيث ظل يعتقد بوجود حياة مشتركة بينه وبين الطبيعة ... حياة تتسم بالتضامن الوثيق؛ ولذا فقد نسب معاني خاصة إلى حركات الكواكب وهجرة الطيور

والرعد والبرق والأنهار والأشجار ... الخ. واعتقد في علم الفلك والتنجيم، وفي علاقة الأحجار الكريمة والألوان بالأمزجة، وفي التكهن بالغيب بملاحظة أحشاء الطيور ... إلى غير ذلك من الخرافات التي أدت بدورها إلى ظهور محاولات للسيطرة على هذه العوامل، وبالتالي على العالم نفسه.

وهناك ظاهرة أخرى تميز بها الإنسان البدائي، وهي أنه لم يمكنه إدراك فكرة الموت، فقد كان يعتبره نوماً طويلاً يمكن للميت أن يستيقظ منه فيزور الأحياء ويطالبهم بحقوقه وأملاكه أثناء نومهم، ومن هنا كان تقديم الأطعمة والملابس بل الزوجات والخدم لتهيئة كل أسباب الراحة والتراف للمتوفي في قبره؛ ومن هنا كانت عمليات السحر لإعادة الحياة إلى ما كان يحيط به في كهفه لاسترضائه، وللحيد به عن فكرة العودة.

وكل الوسائل التي تعتمد على التأثير أو السيطرة بواسطة المشابهة الكاذبة أو الارتباطات المزعومة بين أحداث لا رابطة بينها تسمى بالسحر، وكانت وفقاً على الساحر الذي لا يعهد بسره إلا لصاحب الحظوة من تلاميذه أو لمن يمارس السحر مثله. وكان الساحر الطبيب يختار لمميزات خاصة فيه مثل قوته أو حكمته، أو تشويهات معينة به، أو إصابته بالصرع، أو لحدوث أعجوبة في حياته، كأن تعضه حية فلا تصيبه بسوء، وكذلك بفضل تنبؤات أو أحلام يكون هو موضوعها. وهنا تجدر ملاحظة أن الاشتقاق الفارسي لكلمة (Magie) الفرنسية أو

لكلمة (Magic) الإنجليزية معناه العلم، وأن كلمة (Mage) أي الساحر، كان معناها "العالم".

والطرق التي كانت تستعمل في السحر كانت تصادف ولاشك نجاحاً كبيراً، وإلا فما كانت تزدهر وتدوم. وإذا شككتم في ذلك فسأروي لكم ما شاهدته عند بعض الجماعات المختلفة من قوة الإيمان بالسحر وبالأشياء المقدسة: "في أعالي النيل أتى رجل يوماً إلى أحد المستشفيات، وكله إيمان بأن المنية ستوافيه في موعد معين. وسر إيمانه هذا هو أنه –كما قال – اجترأ على شيء محرم (Taboo) – وإذا كان غريباً أن الطبيب لم يوفق في إقناعه بأنه سليم من جميع الأمراض، فالأغرب من ذلك أنه توفي في الموعد الذي كان يتوقعه ... ثم إن نتيجة التشريح لم تسفر عن معرفة سبب الوفاة .. وهذه الحالة –كما قلت – ليست إلا على سبيل المثال ... فغيرها كثير الحدوث.

الحقبة الثانية:

تقارن بداية فن العلاج عهد تلك الخزعبلات، وتأتي بعد ذلك الحقبة التي عزا فيها الآدميون المرض إلى غضب آلهة معينة، وفسروه بأنه عقاب فرضته على المغضوب عليهم. وهذه العقيدة لم تنشأ إلا عندما تطورت الأديان "الروحانية" التي ألهت جميع الكائنات، إلى أديان إلهية، سواء كانت هذه الأديان موحدة أم مشركة.

ويرى علماء النفس الفرويديون أن هذه الظاهرة – أي رد المرض إلى غضب الآلهة – ما هي إلا تعبير لمركب أوديب أو مركب الخطيئة. كما يقول علماء السلالات إن هذا التدرج نتج عن الخوف من شيخ القبيلة أثناء حياته وبعد مماته، ثم عن اتخاذه إلهاً للقبيلة لاسترضائه، وترديد القصص والأساطير عن حياته إلى حد صبها في صلب المذهب، وقد حصل هذا التطور في أوائل العهد الحجري الحديث (Neolithic)، أي في غضون عهد الفراعنة. ففي هذا العصر تعلم الإنسان الزراعة فأدت احتياجات الحياة الجديدة إلى المعيشة الجماعية، المعيشة التي قوامها تقييد الحرية الفردية للبحث عن مصلحة الجماعة، واتخذ هذا التقييد شكلاً دينياً بفرض الحظر على الكثير من المعاني والأشياء.

ثم تخطى الدين حقبة عبادة إله القبيلة عندما حاول من خلف مينا موحد الشطرين ضم آلهة القبائل تحت لواء إله عام للدولة. وربما كان أول من حاول تنفيذ هذه الخطة عملياً كهنة هليوبوليس، وعلى رأسهم الطبيب الكاهن المعماري "إيمحوتيب" وربما كانت التحفة التي خلقها في ممفيس – ملتقى شطري الوادي – وهي مجموعة أهرام سقارة ومنزلي الشمال والجنوب، أول رمز للاتجاه التوحيدي الجديد.

دامت هذه الحقبة – حقبة الآلهة وخلافاتهم – طوال العصر الفرعوني، وفيها ازدهر الطب، فاصطبغ بشكل ملحوظ بفلسفته اللاهوتية بالرغم من كفاحه المستمر للتخلص منها.

الحقبة الثالثة :

أما الحقبة الثالثة فهي حقبة القرون الوسطى الميتافيزيقية التي حلت خلالها المعاني الميتافيزيقية محل الآلهة، وجاءت بعدها الحقبة الرابعة وهي الحقبة الواقعية الحالية. وكلتا الحقبتين الثالثة والرابعة لم تليا الأولى والثانية إلا في القرون الوسطى، ثم في القرن الثامن عشر.

ومع ذلك فإن في هذا القسم مبالغة في التبسيط إذ أن أساليب التفكير الأربعة وجدت جنباً إلى جنب في كل فترة.

فلا شك مثلاً أن المستنيرين من الكهنة الفرعونيين كانوا يعملون الكثير من العلوم المضبوطة مثل الرياضة، وأنهم كانوا يدينون بفلسفة وعقائد سرية متقدمة بالنسبة لما كانوا يلقنونه للعامة، وإلا لما أعجب به أفلاطون وأبيوقراط وغيرهما من الإغريق المنطقيين.

وإذا تأملنا في البشرية الحالية وجدنا آثاراً جلية في العادات وفي اللغة حتى في أرقى الطبقات وأكثرها ثقافة لكل من التفكير الروحاني واللاهوتي والميتافيزيقي والتجريبي؛ وإن كانت نسبة كل نوه منها تختلف باختلاف الطبقات والبلاد والعصور.

وقد وصلت إلينا معلومات كثيرة عن طب قدماء الآشوريين واليهود والهنود وغيرهم ممن جاوروا الحضارة المصرية أو عاصروها. وهو يختلف من حيث الطابع الخاص باختلاف كل فئة من هذه الفئات.

ففي بابل إذا أغفلنا رواية هيرودوت عن عرض المرضى في المرافق العامة حتى في القرن الخامس – فإن النصوص المسمارية (cuneiform) الموجودة تدل على الاعتقاد حينذاك بأن علة المرض هي العفاريت، وأن علاجها هو التعاويذ، كما تفتقر إلى أي دليل لمعرفة تركيب الجسم البشري أو وظيفة أعضائه معرفة منظمة أو لأي تفكير مرتب فيه، والتعاويذ هي وسيلة العلاج. ولكن البابليين كانوا يتميزون عامة بدقة تبويب معارفهم وبتطبيق معلوماتهم في الرياضة والفلك على ثقافتهم الطبية، في حين أن الظاهرة الغالبة على المصريين كانت تصنيف العلوم والفلولكلور وإنتاج الخيال.

وقد حدد قانون حمورابي (القرن ٢١ ق.م) "تعريفة" الأتعاب التي يتقاضاها الأطباء والجراحون عن كل خدمة يؤدونها، كما حدد بغاية من الدقة العقوبات التي توقع عليهم في حالة خسارة عضو أو جزء من الجسم مما يدل على تقاليد سابقة تمتد إلى زمن بعيد. وفي النصوص المسمارية جاء ذكر عدة أطباء مثل "أردانانادي" و"إيسار حادون" ابن سناكريب نفسه.

وعند اليهود نجد في كتبهم المقدسة معلومات دقيقة في علم الأمراض وعلم الصحة، وإن كان طبهم عبارة عن مجموعات من طب البلاد المجاورة ونصائح صحية للكهنة وغيرهم، وقد ظل الطب إلهياً أو كهنوتياً ... وليس هناك ما يدل على القيام عندهم بتعليم عملي أو إكلينيكي.

وكان في الهند تبعاً لل (jatakas) التي ترجع للقرن الخامس، مدرسة شهيرة هي مدرسة تاكساسيلا وكان علم الطب "أيورفيدا" وقفاً على الطبقات العالية، وكان يعتمد على قراءة وتفسير المؤلفات وعلى بعض الدروس الإكلينيكية.

وقد عرف أطباء الهنود مبدأ الوراثة في الأمراض، وأمراض الدرن والبول السكري بنوعيه: النوع الذي يصيب الشبان، والنوع الذي يصيب الشيوخ، وعلم الأجنة وصحة الحوامل، ولا يزال الطب الفيدي يدرس ويطبق في الهند إلى اليوم، وقد ورثنا عدة عقاقير مفيدة آخرها جذور الروولفيا المستعملة في علاج ضغط الدم والأمراض النفسية.

إلا أن أقدم المؤلفات وأكثرها عدداً، والوحيدة التي يمكن أن تلقي ضوءاً على تلك العصور النائية، هي المؤلفات الفرعونية.

الطب الفرعوني :

وقد توهم تسمية طب هذه الفترة بالطب الفرعوني بأن حالته كانت مطردة التقدم أو ثابتة الجمود، والحقيقة عكس ذلك إذ أن حالة مصر ما فتئت تتطور في مدة لا تقل عن ٤٠٠٠ سنة، فقد مر عليها عهد آلهة القبيلة، ثم عصر مينا الموحد، ثم حضارة الأهرام المزدهرة، ثم وقعت في فوضى المدة الانتقالية الأولى، وازدهرت من جديد، بعد أن طرد أموزيس الآسيويين، تحت حكم إخناتون وتوت عنخ آمون وتحوتنس الثالث،

فاتسعت مصر من الهند إلى الحبشة، ونشأت فيها في عصر المملكة الوسيطة طبقة متوسطة مثقفة، واحترف غير الكهنة بعض المهن ... ثم وقعت تحت سيطرة الفرس والمقدونيين، وعاد الكهنة في العصور المتأخرة إلى سلطانهم، ورجع المصريون إلى السحر والشعوذة. وما فتئت مصر طول هذه المدى تُغْزى فتعزو هي فاتحيها من آسيويين أو حبش أو ليبيين أو نوبيين. وتتبادل العلوم والفنون والأديان معهم، مما يجعل من المستحيل حصر تاريخ هذه المدة في خط سير واحد أو في إطار واحد.

ويمكن رد أصول معرفتنا لطب الفراعنة إلى ديانتهم وإلى لغتهم، وإلى لفائف البردي، وإلى فحص الموميات والنقوش الموجودة في المعابد، وإلى ما روى عنهم بعدهم.

لفائف البردي: تاريخها وأصولها ومحتوياتها:

من المعروف الآن أن جميع اللفائف التي وصلت إلينا منسوخة من أصول أقدم منها، وأن المعلومات التي تحتويها مستقاة من واحدة أو أكثر من تلك الموسوعات الطبية التي ترجع إلى عدة قرون قبلها، وإن كنا لا نعرف شيئاً عن مكان نشأتها أو مؤلفيها، فذاك أمر لا يزال في طي الغموض. إلا أن علماء الآثار المصرية قد بذلوا جهوداً طيبة من أجل إزاحة الستار عن هذا الإبهام، وأدت أبحاثهم اللغوية الدقيقة ودراسة الأساليب التي كتبت بها هذه اللفائف، ومقارنة هذه الأساليب بعضها

ببعض، أدى كل هذا إلى يقينهم أنها ترجع إلى عهد سحيق بالرغم من أنها جميعها مؤرخة في الفترة بين ١٥٥٠ و١٣٠٠ ق.م.

وهذه المخطوطات نفسها تتضمن تعبيرات أو جملاً تنهض هي الأخرى أدلة على أن المعلومات التي جاءت بها كانت معروفة قبل العصر الذي خلفت هذه اللفائف البردية.

ولنذكر من بين هذه الأدلة ما يلي على سبيل المثال:

أولاً: أنه ورد في بردي إيبرز في ثلاثة مواقع كلمة: (gm ws) (ومعناها: وجد ممزقاً)؛ أو: (md z. t) (أي لا توجد أي كتابة). وفي بردي سميث بالخط الأحمر حيث كان ينتظر ذكر العلاج –كلمة (ni h.t.) (أي لا يوجد شيء)، ويمكن تفسير هذا إما بأنه لا علاج لهذا المرض أو أن العلاج لم يرد ذكره في الأصل.

ثانياً: ذكرت بعض اللفائف أسماء المراجع الأصلية، وأشارت إلى ورود بعض المعلومات من مؤلفات قديمة ... مثل ما جاء في كتاب الشرايين (إيبرز ١٠٣ – ١ – ١٨) عن وصفة طبية من أنها قد اكتشفت تحت قدمي تمثال "أثوتيس"، ثم قدمت إلى الملك "سندا" من الأسرة الثانية.

ثالثاً: ذكر بخصوص بعض إشارات طبية أنها اتبعت مع هذا الملك أو ذاك من ملوك الأسر الأولى، وكانت ناجعة المفعول.

رابعاً: تلك القصة المروية على حجر قبر يرجع إلى القرن الثامن والعشرين ق.م وفحواها أن وزيراً يدعى شيبتاح أصيب بإغماء حينما كان يقوم بحولة تفتيشية، فأرسل فرعون نفريركيرى (من الأسرة الخامسة) في طلب الأطباء، فلما رجع هؤلاء إلى المخطوطات واطلعوا عليها أعلنوا أن علة الوزير مستعصية لن يبرأ منها.

خامساً: يروى بردي برلين رقم (١٦٣) أن مينا كان أول فرعون ألف كتاباً في الطب.

سادساً: أن بعض الكلمات كانت قد أصبحت عتيقة في وقت النسخ كأنها من عهد جاهلية الفراعنة، وقد نسى معناها عند نسخ اللفائف مما استدعى كتابة هوامش تفسيرية لها.

أما أصول ما ورد في اللفائف من الوصفات الطبية فأكثرها يرجع إلى الآلهة، مثال ذلك انظر ما يقول بردي لندن (٢٥ – ٤٦) عن تعويذة تشفي مرض الـ (tmjt, nsit) فإنه يروي أنها هبطت من السماء في ساحة معبد تمبيس وقد شمل الأرض ظلام الليل، ولكن القمر أضاء لها الطريق ليلة هبوطها فضمت إلى كنز خوفو أي ألف سنة قبل تاريخ اللفافة.

على أن هناك إشارات نسبت إلى أشخاص آدميين وإن كانت قليلة العدد، نذكر منها ما عزى إلى طبيب اسمه نترهوتيب، ودهاناً للوجه اكتشفه أحد كهنة هليوبوليس ذكر بالاسم في لفافة أيبرز (٤١٩)، وبعض

هذه الإشارات منسوبة إلى غير المصريين كعلاج العيون (أيبرز ٤٢٢) الذي قدمه آسيوي أتي من ببلوس، وكالتعويذة اللتين حفظتا في لغتهما الأجنبية الأصلية (لندن ٢٧، ٣٢)، وكالتعويذة (لندن ٢٧٠) التي تشفي من مرض أطلق عليه اسم أجنبي لأنه وصل إلى المؤلف عن طريق أحد الأجانب.

أهم لفائف البردي:

إن أهم لفائف البردي التي اكتشفت حتى اليوم ثمان، وقد أطلق عليها أسماء: كاهون، وأدوين سميث، وأيبرز، وهرست، وبرلين، وبيتى، ولندن، وكارلزبزد. وهناك مخطوطات أخرى في مجموعات فردية مثل بردى جونكيرز وليدن ووستكار، وهي لفائف ثانوية ... ثم هناك – من هذه الأوراق – تلك الثروة التي لا تزال دفينة في أرض مصر الضنينة بها ... كما أن هناك ما يدل على أن علماء مصر عمدوا إلى التلقين الشفوي بعد درجة معينة من التعليم خوفاً وحرصاً منهم على الاحتفاظ بسرية عملهم، مما يحمل على الظن أن الكثير منه قد تلاشى إلى الأبد بعدم التدوين.

وتقع كل مجموعة من أوراق البردي في لفائف أفقية يتصفحها القاريء من اليمين إلى اليسار، حتى إذا ما فرغ من قراءتها أعاد لفها لتكون الصفحة الأولى أول ما يمكن الإطلاع عليه من جديد ... وهكذا وجدت جميع اللفائف على هذه الصورة، أي معدة للقراءة، ما عدا لفافة

هرست التي عثر عليها مطوية بشكل عكسي أي أنه أهمل إعادة لفها بعد الانتهاء من قراءتها ... وكانت عملية النسخ تتم على يد الكتاب المحترفين لا بواسطة الأطباء، وكان الخط المستعمل هو البراطيقي وهو نسخ الهيروغليفي. وكان يكتب بالمداد الأسود ما عدا الأرقام والعناوين والهوامش، فإنها كانت تدون بالمداد الأحمر. وكثيراً ما كان النساخ يضع الكلمات الحمر أولاً ثم يملأ ما بينها من فراغ بالمداد الأسود مما سبب خلطاً بين النوعين في بعض الحالات.

ولم تكن ثمة فهارس لهذه الكتابات. ويقول هرمان جرابوف في هذا الصدد: "إن المصريين القدماء كالمصريين المعاصرين كانوا يعتمدون على ذاكرتهم القوية في الدرس".

ولم تكن أوراق البردي مجرد مؤلفات تكتب لتظل سجينة المكتبات، وإنما كانت متداولة بين الأيدي كل يوم، كما يتضح ذلك من التفسيرات والتعليقات الكثيرة المدونة في هوامشها، والتي تمنح تلك المخطوطات حياة عجيبة. فمثلاً نقرأ هذه العبارة: "جربت هذا ووجدته مفيداً"، أو هذا التعليق "هذا طيب" ... الخ. وجدير بالذكر أن تلك الهوامش بخط النساخ نفسه، مما يدل على أن المخطوط منقول بحذافيره وهوامشه عن آخر غيره.

أما لغة اللفائف ففيها كثير من البديع في الوصف والتشبيه كما سنرى فيما بعد.

١– بردي كاهون: يرجع إلى عام ١٩٥٠ ق.م، وهو أقدم أوراق البردي الطبية التي وصلت إلينا. ويقع في ثلاث صفحات وفقدت من ثاني صفحة أجزاء كثيرة، وعلى ظهره كتب حساب من وقت فرعون أمنحتب الثالث (١٨٤٠ – ١٧٩٢). وتضم الصفحتان الأولى والثانية سبعة عشر تشخيصاً في أمراض النساء، كما تحوي الصفحة الثالثة سبع عشر علامة للتكهن في فن الولادة. وهذا البردي تنقصه سطوره الأخيرة، ولا يعرف أكامل هو أم ناقص فقدت منه صفحات.

٢– بردي أدوين سميث: وهو يعتبر توأماً لبردي أيبرز، والاثنان اكتشفا معاً عند أحد بائعي الأثريات في طيبة. وقد أدى التشابه العجيب بينهما إلى نوع من النزاع بين مستر سميث والهر أيبرز عندما كان كل منهما يريد أن يشتري البردي.

والبرديان يحملان تاريخاً واحداً وهو ١٥٥٠ ق.م، ولا يمكن الجزم بصحة نظرية بريستد القائلة بأن بردي سميث أكثر قدماً. وقد وصف بريستد هذه اللفافة بأنها أقدم كتاب للجراحة في العالم، وأنها لابد قد أحدثت ضجة كبيرة في العالم الطبي. وتحتوي فاتحته على كتاب الجروح الذي يشمل ثمانية وأربعين تشخيصاً. والأخير من هذه التشخيصات ناقص، إذ أن الجملة الأخيرة منه غير كاملة.

أما ظهر المخطوط فقد دونت عليه كتابة في الأمراض الباطنة تزخر بالتعاويذ وعنوانها "لأبعاد هواء سنة الطاعون"، كما أضيفت إليها إشارة

لمرهم محضر لإعادة الشباب إلى الشيوخ، وإشارة أخرى تتعلق بأمراض المستقيم. وقد درس مايرهوف (Meyerhoff) هذا البردي دراسة نقدية، أما إيبل (Ebbel) فإن تفسيره – ككل ما كتبه عن طب قدماء المصريين – قد تجاوز الاعتدال، كما أن ترجمته لبعض الألفاظ لا تتفق مع الترجمات المعترف بصحتها.

والحقيقة أن هذا المخطوط يحوي ألفاظاً وتعبيرات لم يتسن للعلماء فهمها حتى الآن. وهو مكتوب بخطين مختلفين ومكون من أجزاء ثلاثة، أولها – وهو الذي يرجع إليه الفضل فيما اكتسب هذا المؤلف من قيمة فائقة – يصف مشاهدات واقعية في جراحة العظام والجراحة العامة. وهو مقسم تبعاً لتقسيم الجسم، فيبدأ بالرأس ويهبط حتى العمود الفقري. وربما كان يشمل في الأصل كل أجزاء الجسم، والشيء الذي يحمل على هذا الظن هو أن آخر مشاهدة فيه تتصل بالعمود الفقري وتختم – كما ذكرنا – بعبارة ناقصة في الصفحة السابعة عشر، وعدد المشاهدات ثماني وأربعون، وتشمل الجمجمة، والأنف، والفك، وفقرات الرقبة، وفقرات الظهر، والأضلاع، والصدر، والترقوة، والكتف، واللوح، والصدر، واليدين.

ويلاحظ أن طريقة العرض في هذا البردي تتسم بالنظام والدقة، فكل مشاهدة تبدأ بالعنوان التالي: "تعليمات بشأن ..." ... ثم يجيء الفحص ويبدأ بالعبارة: "إذا فحصت رجلاً ..." ويتبعه التشخيص: "قل فيما يخصه إنه يشكو ...." ثم التوقع، وهو يعبر عن احتمالاته الثلاثة:

الجيد والمشكوك فيه والميئوس منه، بالعبارات التالية: "سأعالجه" أو "سأكافحه أو "مرض لن أعالجه".

وبعد ذلك يأتي العلاج وهو ينتهي ببعض التعليقات والتفسيرات وعددها سبعون.

وهذا الجزء الأول من البردي – فضلاً عما يتسم به من نظام في العرض كما قلنا – يمتاز بالتبويب المنطقي المرتب. وهذا يدل على أن تقاليد طويلة وتفكيراً أصيلاً قد سبقا كتابته، يضاف إلى ذلك خلوه من النظريات والسحر والشعوذة التي تزخر بهما المؤلفات الطبية الأخرى. وربما كان ذلك لأنه يتناول جروحاً يسببها فعل خارجي معروف، ولا يتناول أمراضاً ذات أسباب خفية يمكن إرجاعها إلى الآلهة أو الأرواح. والحالة الوحيدة التي تخرج عن هذا النطاق هي تلك التي لم يقل المؤلف شيئاً عن مالها وكأنها خرجت عن حدود المعرفة البشرية.

وواقعية هذا البردي تتضح أيضاً من دقة الملاحظة التي تتصف بها الحالات المذكورة. ولنذكر من هذه الحالات مثلاً وصف حدوث الشلل والتبول اللاإرادي على أثر إصابات العمود الفقري، والإصابة بالصمم من جراء كسر في عظمة الصدغ، وهذه الدقة تميز كذلك وصف التحريكات العلاجية كطريقة وضع يدي الجراح على الفك المخلوع لرده. وسيجيء ذكرنا هذا عندما نتكلم عن الجراحة.

إلا أن هذا المؤلف غير وافي من حيث العقاقير، فهو يعالج الجروح بوضع اللحم النيء عليها يوم حدوثها، ثم العسل والأعشاب القابضة في اليوم التالي. ويعتمد الطبيب جل الاعتماد على الحمية في الأكل وعلى الطبيعة، وهو في ذلك جدير بالإعجاب.

٣- بردي أيبرز: وإذا كانت لفافة أدوين سميث مرجعنا الأساسي في جراحة قدماء المصريين فإن هذا البردي هو المؤلف الأساسي لمعرفتنا طبهم وقد وصل إلينا كاملاً دون أي تشويه. وهو يرجع إلى عام ١٥٥٠ ق.م، ويحمل تاريخ السنة التاسعة من عهد فرعون أمنوفس الأول. وهذا البردي عبارة عن مجموعة من المؤلفات وبحوث في مواضيع مختلفة وصلت إلى الكاتب فنسخها حسب ترتيب وصولها ويمكن حصرها لإعطاء فكرة عن علم هذا الوقت ومدى التخصص فيه على الوجه الآتي:

١- توسلات للآلهة.

٢- الأمراض الباطنية وعلاجها.

٣- وصفات لأمراض العيون.

٤- وصفات لأمراض الجلد.

٥- وصفات لأمراض الأطراف.

٦- وصفات مختلفة.

٧- أمراض النساء وعلاجها.

٨- مؤلفان عن القلب والشرايين، وهما المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا إلينا في علمي التشريح ووظائف الأعضاء.

٩- الأمراض الجراحية وعلاجها، وهذا لم يتناول الجروح بل اقتصر على الأوراق والخواريج.

ومما يدل على نظرة المصريين إلى المرض أن يستهل هذا البردي المهم على الشكل الآتي:

"هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لكل أجزاء الجسم وأمراضه، وقد ولدت في هيلوبوليس مع كهنة حت – عات سادة الحماية وملوك الخلود والنجدة. ولدت في سايس مع إلهات الأمومة ... ومنحني سيد الكون كلمات أستعين بها على طرد الأمراض من الآلهة، وإبعاد الآلام الوبيلة. إني أضم فصلاً يتناول رأسي هذا ورقبتي هذه ولحمي هذا ....، من أجل عقاب الكائنات العليا التي سمحت للمرض بالتسلل إلى لحمي هذا، وبوضع تعاويذ على أعضائي هذه ... يا إزيس أشفيني كما شفيت هوروس من الآلام التي أصابه بها أخوه سيت لأنه قتل والده أوزيريس. خلصيني من جميع المؤثرات الشريرة ومن الأمراض الشيطانية والأمراض الفتاكة

والملوثات التي رميت بها كما خلصت ابنك هوروس". وهكذا يبدو لنا الطب الفرعوني مصبوباً في قالب من السحر.

أما القسم الجراحي والقسم الخاص بأمراض فم المعدة (Cardia) فهما مكتوبان بطريقة بردي أدوين سميث نفسها.

والجزء الثاني يحوي أول تفسير للحياة مبني على تأملات فلسفية ولا يعتمد على الأساطير، وقد تناول هذا الجزء الكثير من الأمراض الباطنية.

والجزء الثالث إلى السادس هو مجموعة وصفات، ويمكن اعتباره فارما كوبيا هذا العصر لو لم يمتلي بالرقي.

وأول من كتب عن هذا المؤلف هو أبيل الذي تعرف فيه على خمسة عشر "عرضاً إكلينيكياً" منها التورم والاستسقاء والقيلة المائية والانيفيزيم والجذام، إلا أن علماء اللغة لم يرضون عن ترجمته وتفسيراته، إذ أن تلك الأسماء لم يصحبها وصف يبرر هذه الترجمة مما أدى إلى الرأي بأنه تجاوز الحدود المعقولة في التفسير.

ثم هناك:

٣- بردي هرست: وهو يقرب من بردي أيبرز في المعنى والتاريخ.

٤- بردي برلين: وهو مجموعة من وصفات وتشخيصات وتعاويذ، وهو أحدث من السابق (١٣٠٠ ق.م).

٥- بردي لندن: وهو مزيج من الطب والسحر. به وصفات قليلة وتعاويذ كثيرة. وهو "مسيحه" (palimpsest) أي أن الكتابة مسحت عنه ليكتب ثانية مما جعل قراءته صعبة.

٦- بردي كارلزبرج في كوبنهاجن (١٢٠٠ ق.م)، موضوعه أمراض العيون، ويكاد يكون منقولاً نقلاً حرفياً من باب الرمد في بردي أيبرز.

المدارس :

من المحقق أن نشأة أولى مدارس الطب في مصر الفرعونية ترجع إلى عهد الأسرة الأولى. وبعض هذه المدارس بلغ شأناً كبيراً في ميدان الشهرة. ومن بينها مدرسة فتحت في سايس للمولدات اللاتي كن يقمن بتدريس علم أمراض النساء للأطباء أنفسهم، ومدرسة هليوبوليس، ومدرسة أمحوتيب بممفيس التي زادتها شهرة مكتبتها الزاخرة بالمؤلفات والتي كان يتردد عليها الأطباء حتى في عهد جالينوس قبل الميلاد بقرنين. ويعتبر ليفيبر (Lefebvre) أن تلك المدارس التي كانت تسمى بيوت الحياة، كانت بمثابة حوانيت للنساخين يلتقي فيها هؤلاء وهم على جانب كبير من العلم بالعلماء، ويتحدثون في العلم والفلسفة، مثلها مثل "المسيون" (Mauscion) – الذي ازدهر في الإسكندرية فيما بعد.

أما عن التعليم الإكلينيكي كما نفهمه اليوم فلم يكن له وجود في تلك المدارس، وكان ينتقل تبعاً لقول ديودور الصقلي (١ – ٨١) من الطبيب أو الكاهن إلى ابنه. ثم إن الطالب كان يتردد على هذه المكاتب لمقابلة العلماء والفلاسفة للاستنارة بآرائهم. وقد استمر هذا التقليد حتى العصر المسيحي، فقد وردت في لفافة شاسينا القبطية العبارة الآتية: "هذه قطرة حضرتها مع أبى".

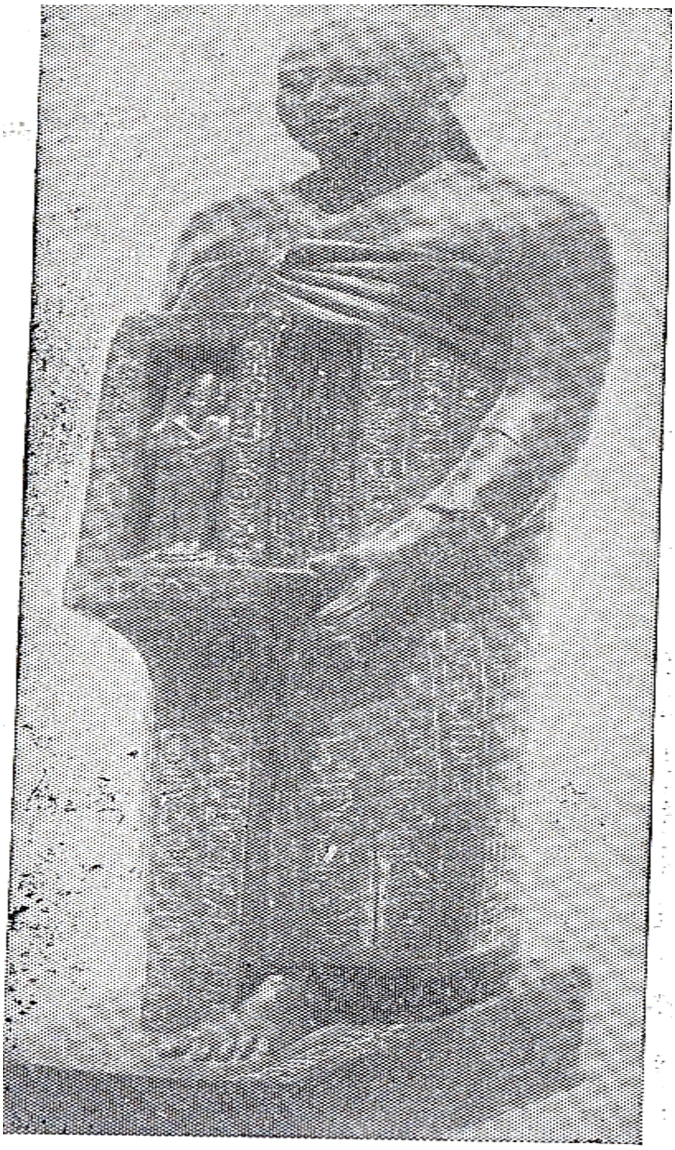
وهذه التقاليد العائلية اتسمت بها العلوم في كل البلاد في هذه العصور، فإننا نجد الطب عن الإغريق وقفاً على أسرة الاسقلبياد سلالة اسقلابيوس ابن الإله أبولو والتي كان ينتمي إليها إيبوقراط. كما أن نص القسم الإيبوقراطي يوعز بمثل هذه السرية بين الأب ونجله.

وعندما أباح أمازيس للأجانب دخول مصر، وفد إليها عدد كبير من الإغريق ليتلقوا فيها العلم، وقد دونوا في كتبهم ترجمات حرفية لكتابات مصرية. غير أن من المشكوك فيه أن يكون الكهنة قد ائتمنوهم على علومهم السرية، ويقول سترابو في هذا الصدد أن الكهنة أخفوا على أفلاطون وأوديكسوس الجزء الأكبر من علمهم بالرغم من أنهما عاشا بينهم ثلاث عشرة سنة.

وهذه الأسرار كانت تتصل بالعلوم والفلك والطب والميتافيزيقيا، بل أن كتب حوت السنة التي تتضمن معلومات عن الجسد والأمراض والأجهزة الطبية كانت تحفظ في خزانة المعبد، وقد عثر إيبوقراط في

القرن الخامس قبل الميلاد في سراديب المعابد المصرية والأهرام على بعض تلك الأسرار التي لم تكن تفشي لغير الكهنة.

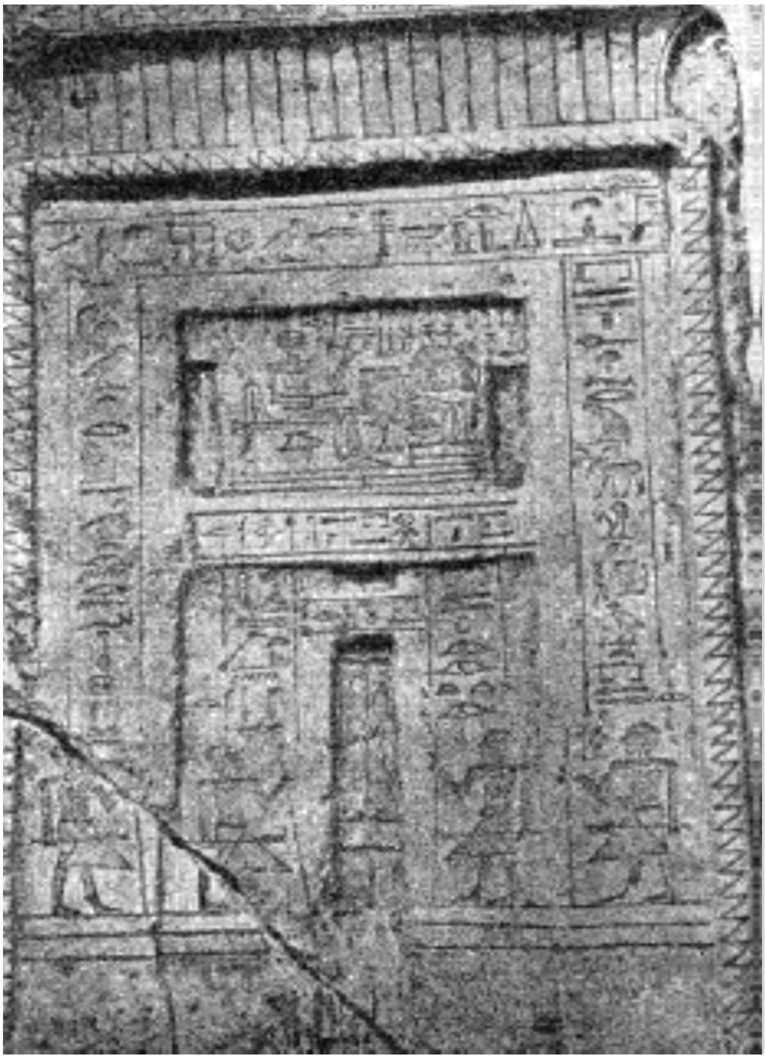
وبالرغم من الهيبة التي كانت تشمل هذه المدارس فقد عانت من نتيجة بعض الغزوات، خصوصاً غزو قامبيز، الذي أمر بهدم المعابد عقاباً للمصريين عندما رآهم يحتلفون بعيد الحصاد بعد عودة حملته الفاشلة من الجنوب، فظنهم مبتهجين بهزيمته. وقد أعاد بناء بعضها ابنه دارا الأول عندما أراد استمالة المصريين، فكلف بهذه المهمة أحد موظفيه في فراس وهو المصري "أوزاهوريسنت" الموجود تمثاله بمتحف الفاتيكان (شكل ٢) والذي روى كيف أدى المهمة بالألفاظ الآتية المنحوتة على تمثاله:



(شكل ٢)

"أمرني صاحبة الجلالة الملك دارا عندما كان موجوداً في "إيلام" بصفته الملك الكبير لكل البلاد وأول أمراء مصر، بالعودة إلى مصر لإعادة تنظيم قاعة بيت الحياة (مدرسة أو مكتبة) بعد أن هزمت وقد قادني أحد البرابرة متنقلاً من بلد إلى بلد كأمر الملك وقد فعلت كما أمرني الملك. جهزت المنزلين بطلبة من أولاد الأعيان ولم يكن من بينهم أحد من أبناء الطبقة الدنيا ... وأمرني صاحب الجلالة أن أقدم إليهم كل شيء طيب حتى يستطيعوا أداء عملهم، ومددتهم بكل احتياجاتهم وبكل الأجهزة التي جاء ذكرها في النصوص التي وصلت إلينا من قبل. وقد أراد جلالته هذا لعلمه بقيمة هذا الفن في إنقاذ حياة كل شخص مصاب بمرض .. الخ".

وهذا يدل أولاً على صلة الطب بالكهنة وثانياً على اهتمام الأمراء بهذا الفن وثالثاً على النظام الدقيق الذي كان يسود هذه المؤسسات.



(شكل ٣)

□

المحاضرة الثانية

الأطباء

إنني أشعر الآن – أيها السادة – بخجل وأنا أتكلم أمام أستاذنا الدكتور محمد كامل حسين عن موضوع كان الأفيد أن يكون هو المتحدث عنه والأليق أن أكون أنا المنصت إليه.

فقد نقل سيادته إلى العربية بردي أدوين سميث وهو – كما قال – كان نقطة التحول بين فن العلاج وعلم الطب في تاريخ البشر، ولم يكتف بدرس نص اللفافة بل غاص بطريقته النقدية الواقعية في نفسية مؤلف هذه اللفافة فسبر غورها وحللها تحليلاً أضاء به ظروف مزاولة الطب في تلك العصور.

فقد رأى الدكتور كامل حسين في الرجل الذي جمع في ذهنه تلك الملاحظات الدقيقة – وسأستعير هنا الكثير من ألفاظه – رأى شخصاً يختلف عن الكاهن الساحر الذي يقوم بواجبه وينصرف بعد قراءة التعاويذ وإطلاق البخور والاستنجاء بالآلهة. رأى فيه إنساناً عادياً – عاملاً – يدفعه ضميره إلى ملازمة المرضى ليالي طويلة، ويترقب أدنى علامات الإبراء فيها، ثم يفكر هذا الطبيب الفلاح في كل ما لاحظه. فيفرق بين المهم

وغير المهم ويرتب ويبوب ملاحظاته ولا يقصر في تشريح الموتى ليعرف سر الوفاة، ثم بعد أن تتكدس في ذهنه خلاصات تجاربه يملي ملاحظاته في لغة طبيعية غير كلام المتفقهين.

وأنكر الدكتور كامل حسين أن مؤلف اللفافة هو كما قال برستيد أمحوتب أو غيره ممن تلقوا العلوم من الكهنة ودرجوا على أسلوبهم في التفكير ولم يعتادوا قضاء الليالي بجانب مرضاهم .. اللهم إلا إذا كان عبقرياً ثائراً ... ولم نعرف عن أمحوتب أنه كان من الثائرين، أو أنه كان جراح جيش محارب حيث أن جروح الحرب لكثرتها لا تدع الوقت الكافي لدراسة كل حالة بالتفصيل.

ويذهب إلى القول بأن الإصابات المذكورة في الرسالة هي من النوع الذي يحدث من سقوط المصابين من ارتفاع ... وفي مثل بناء الهرم الذي شيد في ثلاثين سنة تحدث إصابات كثيرة متباعدة في الزمن. تباعداً يسمح بتولي أمرها أن يدرسها دراسة وافية وأن يتأمل فيها تأملاً كافياً. وقد راق للدكتور كامل حسين أن يرجح أن المؤلف هو عامل من هؤلاء الذين اشتركوا في تشييدها الطويل، امتاز بحبه لجاره، ووهب عبقرية نادرة أبلغته ما وصل إليه من شأن.

وفي تلك الدراسة السيكولوجية الدقيقة صور لنا الدكتور كامل حسين نشأة الفئات المختلفة من المتطببين.

الكهنة:

كان الكهنة أول من مارس مهنة الطب في مصر الفرعونية. واحتكروها في باديء الأمر .. إلا أنهم ما لبثوا أن فقدوا بعض امتيازاتهم، ونشأت فئة من الأطباء غير اللاهوتيين، وإذا بالممارسين لهذه المهنة ينقسمون إلى فئتين إحداهما أرقى من الأخرى: أما الأولى فوسيلتها السحر والشعوذة ... أما الثانية فتعتمد في علاجها على الجراحة والعقاقير ...

واستمر الوضع الجديد فترة طويلة من الزمن حتى عادت الشعوذة والسحر إلى الظهور من جديد عندما قوى سلطان الكهنة مرة أخرى في العصور الأخيرة. وهذه ظاهرة عامة لكل الحضارات فالتاريخ يسجل أن الأوهام والخرافات انتشرت دائماً كلما زاد نفوذ الكهنوت في الشعب.

وكان الكهنة في أول أمرهم عبارة عن وسطاء بين المريض والإله الشافي يعرفون طرق التوسل والسبل إلى اجتذاب رضائه ولكنهم لم يكونوا يمارسون أي نوع من الطب.

على أنه – إذا كان أول استعمالهم للعقاقير سحرياً مبنياً على التشابه أو على الأساطير أو على مبدأ تقديم القربان للآلهة الطيبة لاستمالتها والأشياء الكريهة للآلهة الشريرة لإبعادها وعلى جعل تناول الأدوية مقروناً بالتعاويذ – فلا بد أن مرور الزمن قد أدى في بعض الأحيان إلى إغفال التعويذة وبالتالي إلى ملاحظة أن بعض العقاقير لها فائدة ذاتية – ثم أن الكهنة لم يكونوا مجرد كاتمين لأسرار دينية، وإنما كانوا على جانب كبير

من العلم والدهاء – وكانوا يعرفون فائدة النباتات ويستعملونها لتعزيز تعاويذهم ويلمون بقدر كبير من الكيمياء يسمح لهم بتحضير المراهم والبلاسم والمداد والزجاج، ورد كلمة كيمياء إلى أصل مصري وهو "شيما" الذي كان مستعملاً في مصر القديمة، له ما يبرره ... ويرجع البعض أصل كلمة (pharmacy) إلى كلمة (PH – ARMA – KA) التي اكتشفت منقوشة على تمثال للإله تحوت، إله العلم والطب، والتي تعني "الذي يمنح الصفاء".

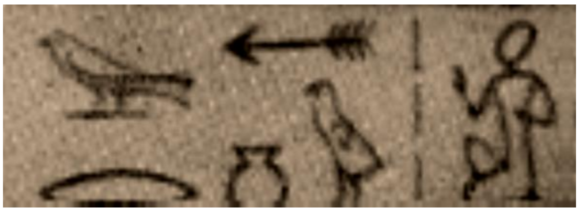
وإلى الكهنة يرجع الفضل في إدخال كثير من الوصفات الصحية بحجة الدين مثل حظراً أكل الخنزير والبجع. والصيام أربعين يوماً كل عام مع تجنب العلاقات الجنسية، وتعاطي شراب السنامكي مرة كل شهر، والاستحمام مرتين كل يوم ... الخ .. كما أن الكهنة كانوا يتبعون قواعد خاصة يفرضونها على أنفسهم مثل إزالة ما ينمو على أجسامهم من شعر مرة كل ثلاثة أيام.

وكان علاج الكهنة يقوم على نظرية أن الإنسان قد منح عند ولادته روحاً خالدة غير قابلة للموت إلا بالقتل. ومن هنا كان المرض يحدث نتيجة لتأثير عامل قاتل خارجي، وهذا العامل إما أن يكون ظاهرياً كالنار والسلاح، أو خفياً يشيع في أنحاء البدن كالجن. ولذلك كانت أول خطوة لعلاج الأمراض الباطنية هي استخدام التعاويذ لانتزاع هذا العنصر القاتل حتى يتسنى للجسم أن يستعيد سلامته.

ومع ذلك فقد كانت عقائد الكهنة الحقيقية أسراراً لا تفشي إلا للأخوان المكرسين، وكانت تختلف كثيراً عما يدلون به لغير هؤلاء، فأن أول من أنكر أي تأثير للأرواح على المرض هو إيبوقراط في القرن السادس قبل الميلاد، وجدير بالذكر أنه كان تلميذاً للكهنة المصريين، وأغلب الظن أنه عرف عنهم هذا السر الخطير ثم أفشاه حين أتاح له ذلك محيطه الذي كان يضم كبار الفلاسفة عصره من الميتافيزيقيين أمثال سقراط.

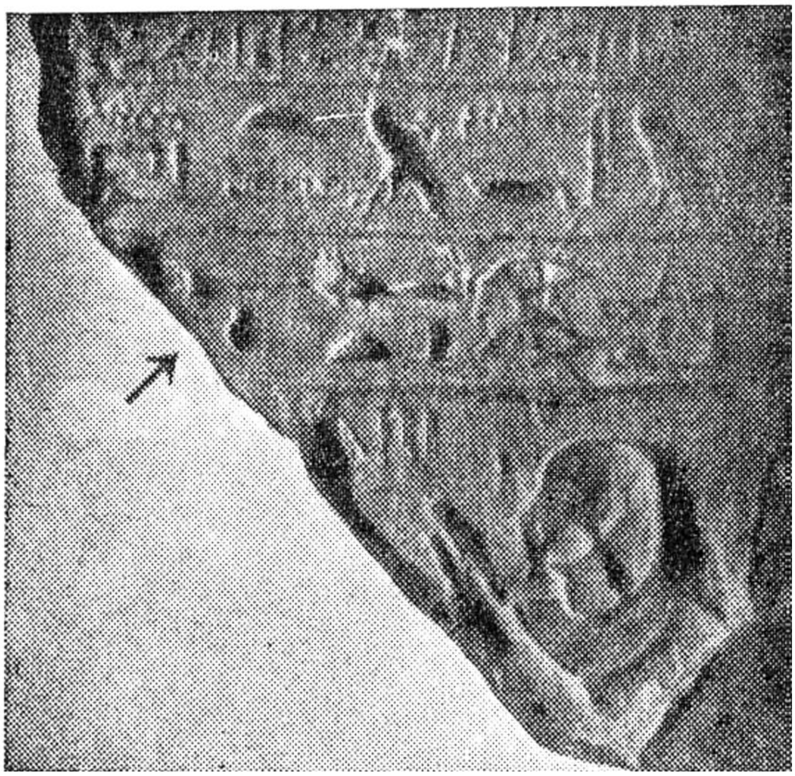
الأطباء:

كان يسمى الطبيب العلماني "سينو" والرمز الهيروغليفي لهذه الكلمة مكون من قنينة ومشرط (شكل ٤)، ولم يميز بين الطبيب والجراح والبيطري...



وكانت مكانتهم طيبة في المجتمع وليس أدل على هذا من أن زوزير فرعون إيمحوتيب كان يلقب باسم "سا" الشافي والطبيب الإلهي، ومما ذكره مانيتو من أن الملوك أنفسهم لم يتعففوا عن ممارسة هذه المهنة وأن الملك أثوتيس نجل مينا ألف كتاباً في التشريح وأن أوزافاييس (٣,١٠٠

ق.م) حقق تقدماً كبيراً في علم الشرايين. ومن أن زورقاً من زوارق القصر النيلية كانت مخصصة لتنقلاتهم.



(شكل ٤)

أما عدد الأطباء فكان جسيماً كما رآهم هيرودوت في القرن الخامس ق.م. وكانوا أمهر الناس على حد قول هوميروس لأنهم كما قال كانوا من سلالة بيون طبيب الآلهة.

وامتدت شهرتهم إلى البلاد المجاورة فترى في عهد أمنوفيس الثاني أميراً سورياً تصحبه زوجته ويتبعه خدم كثيرون محملون بالهدايا يزور نيب آمون طبيب فرعون في طيبة (شكل ٥)، ويروي هيرودوتوس أن قيروس عندما مرض بالرمد طلب من فرعون أمازيس أن يرسل إليه طبيباً يكون أمهر أطباء مصر.

وقد مارس الطب عدة فئات من المحترفين وكانوا مقسمين إلى عدة شعب:

١ – الأطباء الموظفون: وهم أطباء البلاط والحكومة والجيش وكانت ألقابهم تتدرج تدرجاً تصاعدياً وبعضها رنان للغاية فكانت تسمية رئيس الأطباء:



(شكل ٥)

"مدير بيت الصحة ورئيس أسرارها في بيت تحوت". ولا غرو فإن مثل هذه الألقاب كانت تخلع على كبار الموظفين حتى وقت قريب في العهد العثماني فنرى مثلاً محمد علي باشا عندما يمنح كلوت بك رتبة يوجه إليه الألقاب التالية:

"فخر الملة المسيحية، حكيمباشي الجهادية، فدوة أمراء المسيحية، عمدة كبراء الطائفة العيسوية، رئيس مجلس شورى الأطباء .. قد عيناك

مفتشاً عاماً للشئون الصحية، لعساكرنا المجاهدين البريين والبحريين ومشرفاً على الخدمات الطبيبة والبيطرية والصيدلية".

وكانت مزاولة الطب وقفاً عليهم وعلى أبنائهم، وكانوا يتقاضون مرتبات من الحكومة، فكان علاج الفقير مضموناً. وكانوا يتبعون الجيش في انتقالاته حتى أنه نشأت فئة خاصة هي فئة الأطباء العسكريين وهم ولا شك نواة تقدم الجراحة في هذا العصر، وكان بعضهم ملحقاً بالمصانع أو محال العمل كما يظهر من رسم (شكل ٦) وجد على جدار محجر حتنوب يمثل طبيباً موظفاً بالمحجر وألقابه: "رئيس كهنة سخمت، رئيس السحرة، طبيب الملك"، ومن آخر في مقبرة وصفها دافيس نرى فيها الصناع والفنانون وهم يعملون في مختلف أجزاء عمارة المعماري "أيبي" (شكل ٧) وبينهم شخص يعدل كتفاً مخلوعاً (١) وآخر ينتزع من عين أحد العمال جسماً غريباً (٢). بينما يتألم ثالث من "شاكوش" وقع على قدمه (٣).

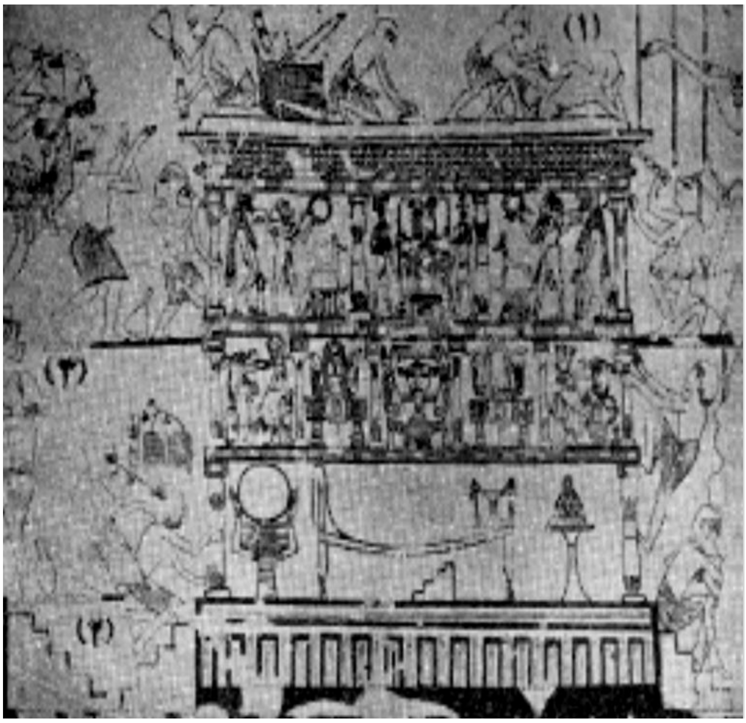
وكانوا يجهزون ويناولون الأدوية بأنفسهم ولذلك فلا يوجد أثر وصفات "روشتات" يتركها الطبيب للمريض. سوى بعض قطع من الخزف (أوستراكا) وصفها جونكير والغالب أنها كانت مذكرات كتبها طبيب عند زيارته للمريض للاسترشاد بها عند تحضير الدواء بعد عودته إلى منزله.

والظاهر أنهم إلى جانب أعمالهم الرسمية كانوا يزاولون مهنتهم من أجل الجمهور ويتقاضون منه أتعاباً غير ضئيلة ويحظون منه بهدايا ثمينة.

ولكني أشك فيما يروي في هذا المقام (والتبعة على الرواي) من أن الطبيب كان يحلق شعر مريضة قبل بدء العلاج ثم يعيد حلقة بعد الشفاء وهنا يقدر أتعابه على أساس وزن الشعر.. وكان ذلك من شأنه أن يرضى الصلع وأن يشجع على إطالة فترة العلاج .. ومن جميل تقاليدهم أن الطبيب كان يقتطع جزءاً من أتعابه يخص به المعبد الذي تلقي فيه علومه الطبية وقد جمع بعضهم ثروات طائلة مثل الطبيب الذي ذكره جونكير والذي كان يملك ١٨٢ منزلاً في طيبة.



(شكل ٦)



(شكل ٧)

وأشهر الأطباء في مصر الفرعونية هو ولاشك "أمحوتيب" ومعنى ذلك الاسم "الذي أتى سالماً" وقد عاش في عهد الأسرة الثالثة أي قبل الميلاد بحوالي ثلاثين قرناً وقد قال عنه سير وليام أوزلر "أنه أول شخصية طبيب ظهرت من غيوم قديم الزمان" وقد شك المؤرخون أخيراً في أنه كان طبيباً، وبنوا شكهم هذا على أنهم لم يجدوا في النصوص المعاصرة له أو القريبة منه أي ذكر لمزاولته مهنة الطب التي لم تذكر بين ألقابه إلا بعد دخول الفرس، أي أكثر من عشرين قرناً بعد وفاته، وكان كبير وزراء زوزير فرعون الهرم المدرج بسقارة ومعمارياً فذاً إذ أنه أول من استعمل الحجر

في البناء في تاريخ الإنسانية وأول من تخيل ونفذ مجموعة بنائية ضخمة تظهر لكل عين فوق الهضبة الغربية، وكانت ألقابه "كاتم سر" ملك مصر السفلى، والأول تحت ملك مصر العليا، مدير إدارة القصر، نبيل بالوراثة، كاهن هليوبوليس السامي، مراقب أبنية مصر العليا والسفلى، مراقب بناء مدينة الهرم، وزير، رئيس طقوس زوزير ملك مصر العليا والسفلى، محاسب الحبوب الأول لملك مصر العليا والسفلى، أبو منجل، وناسخ كتاب الإله، إلا إن أجمل لقب لأيمحوتب وهو رئيس كهنة "عين شمس" هو أن أصبح رمزاً لكلية طب جامعة القاهرة.

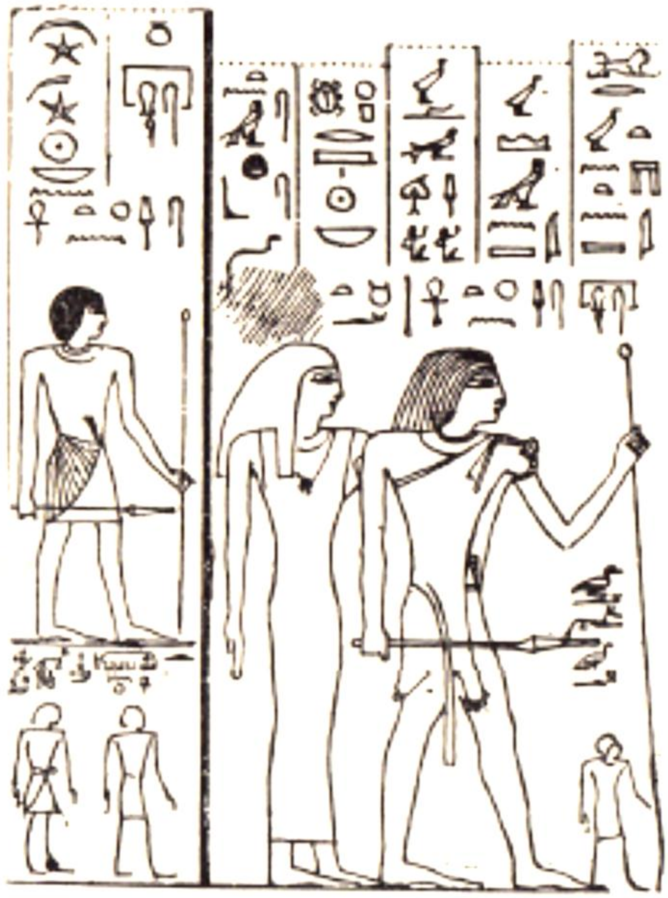
وقد وصل إلى مجد كبير وخلد اسمه إلى حد أنه إلاه في عصر سايس الفارسي بأن نسب إلى سلالة فتاح وسخمت فقيل أنه ابنهما .. وحل محل "نفرتم" في ثالوث ممفيس الكبير مع فتاح وسخمت .. وخصصت له ثلاثة معابد على الأقل هي معابد ممفيس وطيبة وفيله ... وكان النساخون يتوسلون إليه قبل كتاباتهم فيصبون الماء على تماثيله قائلين: "ماء من قنينة كل كاتب لروحك "كا" يا أيمحوتيب" .. وتنازع الإغريق تبعيته فقالوا أنه باسقولاب إله الطب وابن أبولو في أساطيرهم.

وقد جاء في النصوص المصرية ذكر الكثيرون من الأطباء الذين لم يصلوا إلى منزلة أيمحوتيب رغم شهرتهم، وقد جمع منهم جونكير حوالي المائة، منهم "إيرى" الذي جاء اسمه في مقبرة بالقرب من أهرام الجيزة (شكل ٣) ولقب بطبيب القصر الملكي، مفتش أطباء القصر، طبيب رمد القصر، مفسر السوائل الخفية في "النثنث (أي البول). ويوجد في متحف

القاهرة تمثال جميل لـ "ني عنخ رع" (الحياة تدوم لرع) رئيس أطباء البلاط الذي "عمل في بيت العلماء، طبيب البلاط، العليم بأسرار الملك اليومية" (صفحة ٤ من الغلاف) وقد جاء ذكر طبيب آخر هو "ني عنخ سخمت" حيث جاء أن الملك "ساهورع" (٢٥٥٠ ق.م) كان يدين بصحته إلى طبيب جسمه "ني غنح سخمت" وكافأه بأن أقام له حجراً منقوشاً مثل فيه الطبيب حاملاً صولجانين رمز السلطة ومرتدياً جلد الفهد وهو لباس أرفع الكهنة مقاماً (شكل ٨).

ثم يمضي قرن فترى طبيباً آخر للبلاط وهو "خوى" يحمل لقب "رئيس أطباء مصر العليا ومصر السفلى (الصعيد والدلتا) ويجمع بين هذه الوظيفة ووظيفة رئيس كهنة هرم "تيتى" (٢٤٠٠ ق.م) ويلقب نفسه باسم "العالم بالفنون السرية" مما يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقرن الطب بالسحر.

وهناك "أوزارهورسنت" هذا الذي كلفه دارا الأول بإعادة بناء مدرسة الطب التي كان قد هدمها قامبيز (شكل ٢)، وآخرون عدة...



(شكل ٨)

إلى اليمين: "ني عنخ سخمت" وزوجته مرتدياً جلد الفهد وحاملاً صولجانين؛ إلى اليسار: في أعلى الصورة "نى عنخ سخمت" وفي أسفلها "منقورِع عنخ" واسم كل منهما مكتوب فوق رأسه.

وإلى جانب هؤلاء نشأت فئة الأخصائيين وكانوا أقل منزلة وربما كانوا يعتبرون "صناعاً" أو "مساعدين فنيين" ينفذون إشارات الأطباء.

وكان الاختصاص يزاول في حدود ضيقة للغاية. فهذا متخصص في الرمد الحبيبي وذاك متخصص في مرض السيلان. وثالث لا يعالج إلا الشرج ويطلق عليه اسم لا يخلو من البديع هو "راعي الشرج" وقد تصف هذه التسمية الموكل إليه تركيب الحقن الشرجية ... الخ. بل إنهم أمعنوا في تضييق ميادين تخصصهم حتى بزوا في ذلك بعض معاصرينا، وليس أدل على ذلك من أن بعضهم كانوا يدعون أنهم متخصصون في الأمراض المجهولة وربما عبروا بهذا عن الأمراض الباطنية الخفية الأسباب، وقد دعا ضيق تخصص بعضهم إلى ترجيح أن هؤلاء الأخصائيين في علاج مرض واحد ليسوا سوى صناع في مهنة الطب.

وهناك أيضاً ما يدل على وجود مساعدين أو ممرضين وأخصائيين في الأربطة والتدليك وكان يطلق عليهم اسم "أوت" (سميث ١٠,٧ – ٢١) وقد وجدت في لفافة وستكار (١٦,٧) وفي مقبرة عنخ ماهور صور تمثل خدماً يدلكون القدمين ويعنون باليدين وكان البعض من هؤلاء "الأوت" للأحياء والبعض الآخر للموتى (أي للتحنيط).

الصحة العامة :

قال ديودوروس في أسلوب حياة المصريين إنه يبدو مرتباً كأن طبيباً نظمه وفقاً لقوانين الصحة لا مشرعاً مبتكراً للقوانين.

فإن الزواج في مصر القديمة كان يتم بمجرد البلوغ مما جنب المراهقين الكبت الجنسي وما ينشأ عنه من عقد. ولم يكن زواج الأخ من أخته معروفاً في غير مصر، وإن كانت هذه العادة ممعنة في القدم إذ يروي التاريخ أن أوزيريس تزوج من أخته أيزيس وأن نفتيس اقترنت بأخيها سيث. وقد احتفظ الفراعنة بتلك العادة تقليداً للآلهة وحرصاً على صفاء سلالتهم. وكانت من التغلغل إلى حد أن ثلثي المتزوجين في بلدة "أرسينوي" مثلاً كانوا متزوجين من أخواتهم .. وقد عاب الإغريق هذه العادة على المصريين زاعمين أنها تتنافى مع القيم البشرية .. والاعتقاد لا يزال سائداً حتى الآن بأن هذا الانحراف يعرض للأمراض. ولكن روفر يقول بعد دراسة وافية مستفيضة. أنه لا أثر لمثل هذا الانحلال مثلاً في الأسرة الثامنة عشر وهي التي أنجبت أكبر تسعة ملوك ولا عند البطالسة. وكان الإجهاض وتحديد النسل يعاقبان عقاباً شديداً، والعلاقات الجنسية محرمة أثناء الحيض.

ومع أن تعدد الزوجات كان مباحاً فإن الزواج بأكثر من زوجة كان محرماً على الكهنة وكانت الظروف الاقتصادية تحد من هذا التعدد بحيث كان أغلب المتزوجين من المصريين القدماء يكتفون بزوجة واحدة، وكان

البغاء مؤسسة رسمية أنشئت من أجل غير المتزوجين والمسافرين والجنود .. أما الدعارة المقدسة كالتي توجد في الهند فلم يعثر في المعابد الفرعونية على أي أثر يدل عليها.

الختان:

يقول هيرودوت: "إن الذين زاولوا الختان من أقدم العصور هم المصريون والآشوريون والكولشيديون والأحباش .. أما غيرهم من الشعوب فقد عرفوه عن المصريين.



(شكل ٩) الرسم في الركن الأسفل الأيسر مفسر للنحت

وكانت عملية الختان تجري للأولاد غالباً بين السادسة والثانية عشرة من أعمارهم في المعابد ومع ذلك فإنها لم تكن فرضاً على الشعب كما صارت فيما بعد عند اليهود أو سنة عند المسلمين – إذ أننا لا نجد أثراً لها في كثير من النقوش – ومع أنها لم تكن مقصورة على الملوك والكهنة إلا أنها كانت محتمة على من يقومون بطقوس معينة.

وقد اتخذ بعض المؤرخين من تتابع الولادة والختان مباشرة في بعض نقوش المعابد الخاصة بالولادة وطفولة الأمراء (شكل ٩) دليلاً على أن هذه العملية كانت تجري بعد الولادة بأيام وقال البعض الآخر أن هذا التمثيل كان رمزياً فقط حيث أن النقوش الأخرى وخصوصاً تلك التي تخص غير الملوك والآلهة مثلت العملية وهي تجري على أشخاص لا شك في أنهم قد تقدموا في السن إلى حد ما.



(شكل ١٠)

وربما كان مفيداً درس نقش شوهد على جدران مقبرة (غنخ ماهور) من عصر الأسرة السادسة في سقارة (شكل ١٠)، وهذا النقش مكون من جزأين: ففي الجزء الأيمن نرى الجراح – وقد ذكرت قبالته عبارة "الكاهن المختن" – نراه وقد أمسك بيده اليمنى بآلة مستطيلة في وضع عمودي على العضو التناسلي وفي اتجاه طول الجسم .. ونلاحظ أنه لا تبدو على أسارير وجه المريض ما ينم على تألمه ويقول الطبيب:

"إن هذا يجعله مقبولاً – للكحت (أو الدهان) في حالة جيدة".

أما الجزء الأيسر فيظهر فيه الجراح ممسكاً بآلة أو بشيء آخر بيضاوي الشكل يلمس به العضو التناسلي الذي يسنده بيده اليسرى. وفي هذا الجزء تدل ملامح المريض على شعوره بالألم .. ونلاحظ كذلك وجود مساعد الجراح خلف المريض وقد أمسك بذراعيه على ارتفاع وجهه في قوة وعنف .. ونقرأ قول الطبيب: "أمسكه كيلاً يقع" ورد المساعد أو المريض: "سأفعل وفق إشارتك"..

وبديهي أن تكون اللوحة الأولى لإيضاح التحضير أو التخدير للعملية إذ يقول الطبيب.. "هذا الدهان يجعله مقبولاً" .. ولا تنم ملامح المريض عن أي ألم ... وأن تكون اللوحة الثانية لتبين الطور الثاني من العملية وهو إجراء الجراحة نفسها.

إلا أن موريس بيلى pillet لم يقبل هذا التفسير وقطع بأن الكتابة الأولى تتعلق بالرسم الثاني والعكس بالعكس وفسر وجود ذراع المختن في

وضع مقوس إلى أعلا على أنه دليل على ما يبذل الطبيب من جهد وقال إن العملية ليست مؤلمة في ذاتها وإنما يحدث الألم بعد إجرائها على أثر وضع المرهم على الجرح أو تضميده، وذهب بيلى في تفسيره وضع الآلة المستطيلة عمودياً على العضو بأن العملية كانت تجري على مرحلتين: الأولى هي إحداث قطع مستطيل من منتصف العضو إلى آخر القلفة والثانية قطع دائري في العضو يبدأ عند القطع الأول. ولكن ربما كان وضع الرسام للآلة على شكل مستطيل خضوعاً لقوانين الرسم عند قدماء المصريين.

ولقب الختان يلفت النظر من غير شك فقد لقب "بالكاهن المختن" وربما يدل هذا على أن العملية التي يقوم بإجرائها لا تدخل ضمن اختصاصات الجراح العادي.



(شكل ١١)

وربما يستغرب وجود مثل هذا النقش في مقبرة رجل لا يعرف عنه أنه كان طبيباً ولكن الغرض من وجود تلك النقوش في المقابر قد يكون إثارة الحياة فيها بطريقة سحرية بعد إغلاق المقبرة، فتجري مثلاً عملية الختان على أطفال المتوفى إذا رزق أولاداً بعد موته.

وهناك نقش آخر (شكل ١١) لعملية الختان في كرنك يظهر الجراح وهو يضع الآلة القاطعة بيده اليمنى على العضو التناسلي في مستوى الكمرة – بعد ربط العضو بربط دائري على قاعدته. ويفتح فتحة (القلفة)

بأصابع يده اليسرى. وهذا من غير شك ليتجنب جرح العضو عند القطع، ولكن الآلة القاطعة تختلف عن الرسم الأول فهي أشبه بمشرط أو سكين مكشوط الحد.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الختان لم يكن يجري في الماضي بالشكل المتبع الآن أي أنه لم يكن استئصالاً كاملاً للقلفة وإنما كان مجرد قطع مستطيل يجري على ظهرها للاكتفاء بفتحها.

وقد حاول الرومان تحريم الختان ولكنهم لم ينجحوا لأنه كان — كما قلنا — مفروضاً من بعض الطقوس الدينية، ويروي سترابو أن هذه العادة كانت تزاول كذلك بالنسبة للنبات وإن لم يكن هناك ما يدل على أنها كانت تتم على الطريقة المتبعة في النوبة والسودان وذلك بالرغم من أن هذه الطريقة تدعى "بالختان الفرعوني".

النظافة العامة :

وكان المصري يتميز بالنظافة الفائقة سواء أكان غنياً أم فقيراً — وقد أعجب السواح الإغريقيون بالمظاهر المختلفة لنظافة المصريين مثل عادة غسل أواني الشرب واستعمال الملينات والمقيئات ثلاثة أيام كل شهر بل أن هيرودوت يشفق على الكهنة من تغاليهم في النظافة ويقول أنه لا بد من أن يكون هناك ما يعوضهم عن هذه القيود، ولا شك في أن للكهنة كما ذكرنا فضلاً كبيراً في تعليم الشعب النظافة؛ ومن مظاهر هذه النظافة أنه

كان يقوم الغسل يديه في الصباح وفي المساء وقبل الأكل وبعد كل عمل يعتبر نجساً، ولم يعرف المصريون الصابون وكانوا يستعلمون الصودا في الغسيل والزيوت والروائح لصيانة البشرة وحفظ نعومتها .. وكانوا جميعاً – رجالاً ونساء – يتخلصون مما ينمو على أجسامهم من شعر أما بالحلق وأما بالنتف .. أما الكهنة فكانوا يحلقون شعر رؤوسهم ووجوههم ويحلون مكانه شعراً مستعاراً ولحى صناعية.

وكانوا يستعملون دهوناً كثيرة لمنع شيب الشعر ومن هذه الدهون دم الثيران الصغيرة السوداء ودهن الثعابين السوداء كذلك، ورحم القط، وبيض الغراب.. كما كانوا يلجئون إلى دهون أكثر ندرة للتخلص من الصلع مثل دهن الأسد وفرس البحر والتمساح والقط وكذلك إلى شوك المحروق .. وليس من شك في أن النتائج التي تحققها المراهم الحالية لا تفوق تلك التي كانت تؤديها تلك العقاقير "السحرية".

أما الغذاء فكان أهمه الخبز والجعة. وكان الخبز يصنع من الشعير والقمح الصلب مسحوقاً سحقاً بدائياً يترك فيه الكثير من القش والفضلات مما كان يسبب – بالمضغ – تآكلاً كبيراً في الأسنان.

وأهم ما كان يتناوله المصريون القدماء من الأطعمة الحاوية للمواد الزلالية أنواع السمك وكانوا يأكلونها مشوية أو مسلوقة أو نية أو مجففة في حرارة الشمس أو محفوظة في الملح (الملوحة والفسيخ).

وما دمت قد ذكرت الملح فلا بأس من أن أشير إلى أنه كان يباع على شكل قوالب كبيرة عثر على الكثير منها في الآثار. وقد أثبت التحليل أنها – حتى التي ترجع إلى الأسرة السادسة .. (٢٢٠٠ ق.م) وهي أقدم ما وجد – أقول أن التحليل قد أثبت نقاءها وخلوها تماماً من الشوائب مما يدل على أن الملح في عهد الفراعنة كان يستخرج من منابع مالحة وليس من البحر.

وكان الملح ذا رمز ديني كشأنه في التوراة إلا أن هذا الرمز كان يرتبط عند المصريين ارتباطاً أوثق بالنطرون الذي كثيراً ما كان يستعاض به عن الملح في حفظ الأطعمة وكان معظمه يستخرج من وادي النطرون والجزء الأقل من الكاب بالقرب من أرمنت ومن نوكراتيس في الدلتا – وكان يسمى "نترى" – وهذه التسمية التي نستعمل مشتقاتها إلى اليوم (نترات) و(نتريك) الخ.. تفسر الرمز الديني إذ أن كلمة "نتر" معناها الطاهر أو الإله. يضاف إلى ذلك أنه كان يخلط دائماً بالبخور في طقوس التطهير.

ومن الأطعمة الزلالية في مصر القديمة لحوم الضأن والبقر والثيران، واللبن والطيور مثل البط والأوز، ولم يعرف الدجاج إلا في عهد متأخر.

وكانت الفواكه كثيرة كالشمام والبطيخ والخيار والبلح والزيتون والتين والعنب. وكذلك الخضر التي كانت متنوعة، منها البصل والكرات

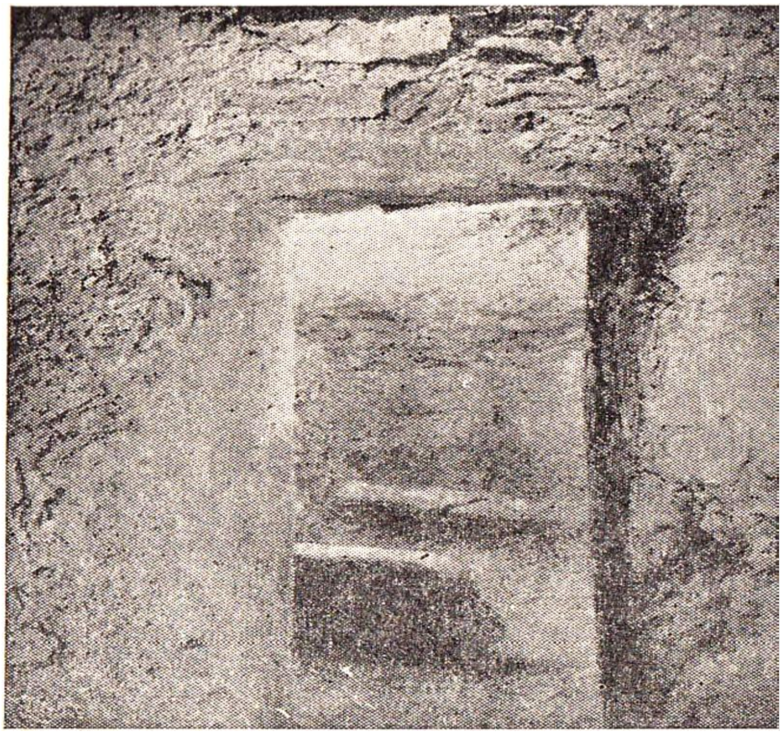
والثوم والحبوب والفجل، وكان المصريون يستعملون العسل في التحلية وزيت الزيتون في طهي الأطعمة.

وكان الماء ينقل في قرب مصنوعة من جلود الحيوانات ويحفظ في أوعية من الخزف المسامي ولكنه لم يكن المشروب الوحيد. كانت هناك الجعة التي تشبه البوظة المعروفة في وقتنا الحاضر وكان هناك النبيذ الذي لم يكن شراؤه في متناول الجميع بل كان مقصوراً على الأثرياء .. وكانت أنواع هذا النبيذ عدة أهمها ما كان يصنع من العنب والبلح.

كيف كانت المساكن في المملكة القديمة؟

وإذا ما انتقلنا الآن إلى داخل البيوت وجدنا أنها كانت تهوى "بالملاقف" وترش بمحلول النطرون لقتل الحشرات، وكانت مزودة بالمراحيض مما أثار دهشة هيرودوت فقال: "إن المصريين يختلفون في عاداتهم عن بقية الشعوب الأخرى. فهم يتناولون طعامهم خارج مساكنهم بينما يقضون حاجتهم داخلها" .. وليس من شك في أن قول هيرودوت هذا يدل على أنه لاحظ وجود المراحيض في البيوت .. وبالرغم من أننا لم نكشف مسكناً واحداً يرجع إلى المملكة القديمة إلا أننا استمددنا معلوماتنا عنها من القبور التي اكتشفت في سقارة شمالي الهرم المدرج وخاصة من المصطبة رقم ١٣٠٢ – الخاصة بروابو الذي كان معاصراً لفرعون الأسرة الثانية نترمو (حوالي ٣٠٠٠ ق.م) وهذه المصطبة وهي من عهد الدولة القديمة تحتوي على نماذج مصغرة للبيوت التي كان يسكنها

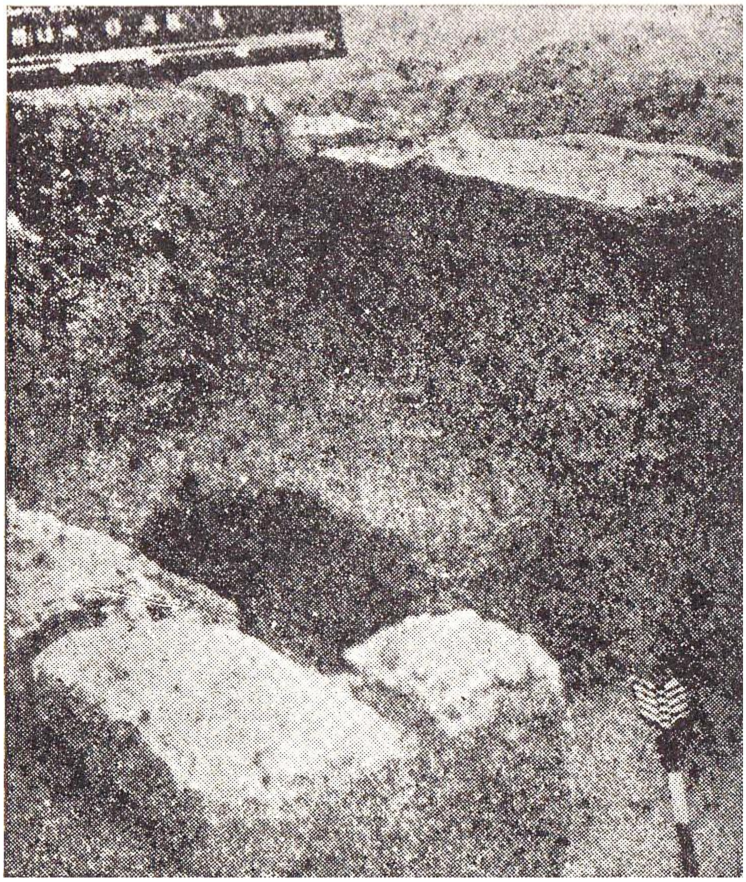
المتوفى في حياته لتعمرها روحه بعد ذلك. ويمكن القطع بأن القاعة التي على شكل حرف H في الرسم البياني لهذه النماذج كانت تضم الحمام، والمرحاض، وشكل هذه المراحيض لا يختلف عما وجد عليه طول الحضارة المصرية فهو مكون من حاجزين كل منهما على شكل مربع منحرف قاعدته إلى أعلى – وبينهما وعاء تمتليء إلى نصفه بالرمل وكان المرحاض يحتل دائماً من البيت الجهة الجنوبية الشرقية (شكل ١٢).



(شكل ١٢)

وفي المملكة الوسيطة – لم تضم المقابر مساكن للروح وإنما أستعيض عنها بنماذج صغيرة من الخزف .. كما أنه لم يعثر على أي أثر للحمامات أو الحمامات أو المراحيض في أول مدينة اكتشفت كاملة وهي (كاهون) التي بناها سيزوستر الثاني (١٩٠٦ – ١٨٨٧ ق.م) في الفيوم. على أن هناك رواية ترجع إلى عهد المملكة الوسيطة تشير إلى وجود حمام في بيت أحد الأمراء المعاصرين لسيزوستريس. وقد ذكرت أسماء لأواني تشبه الإبريق والطست كما وجدت مصفاة داخل تابوت خشبي في دير البحري يرجع إلى ما قبل المملكة الحديثة.

وقد نجح الفرعون الموحد والمجدد في ميداني الدين والفنون (أخناتون) في تحسين الجهاز الصحي بالبيوت في المدينة التي سماها "أفق قرص الشمس" وهي (تل العمارنة) والفضل في ذلك يرجع من غير شك إلى ما تميز به من حساسية الفنان المرهفة.. فقد اكتشف بورشاردت في مدينة تل العمارنة أربعة أنواع من المراحيض (شكل ١٣) وهناك نماذج أخرى وجدت في مدينة هابو كما وجدت مقاعد متنقلة لقضاء الحاجة (شكل ١٤) وكل هذه الأنواع مزودة بمقاعد مفتوحة من أعلى لتهبط الفضلات من هذه الفتحات فتتلقاها أواني خاصة.



(شكل ١٣)

هذا عن المراحيض، أمام الحمامات فقد وجدت منها أمثلة عدة في هذا العصر ولم يكن المستحم ينغمس في حوض مملوء بالماء كما كان يفعل الإغريق والرومان وإنما كان يصب الماء من أعلى فوق رأسه، والطريقة الأولى أصح من الثانية.



(شكل ١٤)

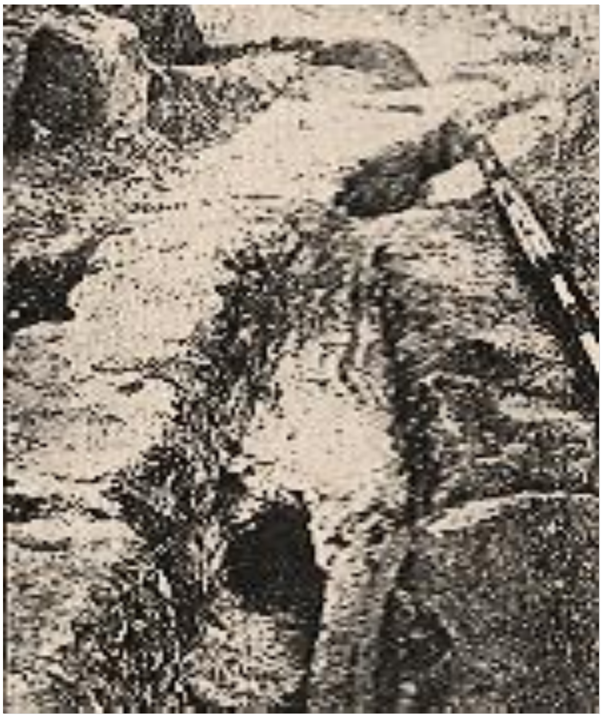
وكانت الحمامات مزودة في أسفلها بخزانات ينساب إليها الماء الملوث وكانت الجدران المحيطة بالحمام مغطاة بالحجر أو بالخزف لصيانته .. وهذه الحمامات بلغت ذروة الترف في عهد رمسيس الثالث الذي بنى معبداً في مدينة هابو ثم هدمه وشيد على أنقاضه معبداً آخر مزوداً بعدد كبير من الحمامات ليستخدمها هو "وحريمه" وكل من هذه الحمامات كان منحوتاً في حجر واحد.



(شكل ١٥)

وقد أظهرت حفريات بورشارت في معبد "ساحورع" ثاني فرعون الأسرة الخامسة (٢٧٠٠ ق.م) في سقارة أحواضاً من الحجر المبطن بالمعدن في كل حجرة وفي كل ممر منه، وفي أسفل كل حوض فتحة تسدها سداده من المعدن مربوطة بسلسلة (شكل ١٥) تشبه تماماً السدادات والسلاسل المستعملة في الأحواض الحالية. وكانت فتحات الأحواض متصلة بشبكة من الأنابيب الجوفية قدر طولها بأربعمائة متراً وتنتهي إلى الوادي، والأنابيب مصنوعة من صفائح النحاس المطروق مطوية على شكل أسطواني مع مراعاة تراكب الأطراف ووضع الشفتين إلى أعلى

(شكل ١٦). ولكن لم يوجد أثر لتعميم نظام الصرف هذا فيما بعد فإن المياه المطردة من المساكن كانت تتسرب في مجرى مشقوق في وسط الشارع (شكل ١٧ و١٨) كما كانت الحال في أوروبا إلى عهد قريب. وكانت أحياناً تجمع في أوعية خارج المنازل (مثلاً في تل العمارنة)، (شكل ١٩).



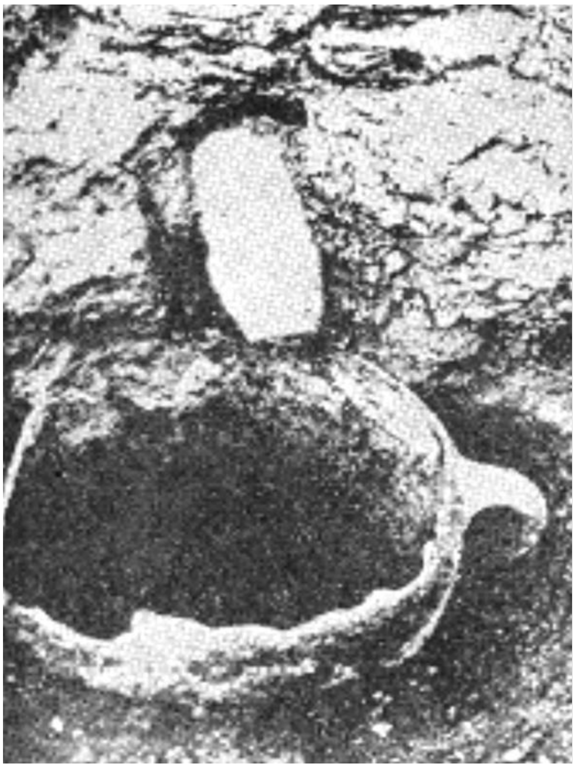
(شكل ١٦)



(شكل ١٧)



(شكل ١٨)



(شكل ١٩)

أما في عهد البطالسة فقد عم استعمال المقاعد بالمراحيض وانتشرت الحمامات العامة المزودة بالتدفئة وكان عدد الحمامات العامة في الإسكندرية ٤٠٠٠ عند فتح العرب ولكن حضارة هذا العصر تنتسب إلى حضارة الإغريق أكثر من انتسابها للفراعنة.

علم الأمراض :

قلنا أن الطب الفرعوني يبدو كأنه يحاول التحرر من شرنقة السحر والتفكير اللاهوتي ليتحول إلى فراشة العلم التجريبي.

ولذا فإنه يمكن التمييز في نظرتهم إلى المرض بين نوعين منه وهما: الأمراض الخارجية والأمراض الداخلية وقد دام هذا التقسيم إلى عصرنا هذا وإذ يسمى الفرنسيون الجراحة بالباتولوجيا الخارجية والأمراض الباطنية بالباتولوجيا الداخلية.

والسر في تمييزهم هذا هو نظرتهم إلى الصحة والمرض عامة. فقد كانوا يعتقدون – كما قلنا من قبل – أن الروح خالدة لا تبلى إلا بالقتل، وأن المرض لا يحدث إلا بتأثير عامل قاتل خارجي، وهذا العامل أما أن يكون ظاهرياً كالسلاح والنار ... أو خفياً. وهم في ذلك معذرون فإن جهلهم بعلم المكروبيولوجيا وكيمياء الجسم الداخلي هو الذي جعلهم يعزون المرض الخفي إلى أرواح شريرة أو إلى أعمال سحرية أو إلى عقاب تفرضه الآلة، أو إلى ميت أو إلى عدو.. وكثيراً ما كانوا يقرنون اسم المرض بلفظ "عدو" (شكل ٢٠) كمخصص له.



(شكل ٢٠)

وليس أدل على نظرة قدماء المصريين هذه من رسالة بعث بها مريض إلى زوجته بعد وفاتها يعتب عليها وفي في حياتها الأخرى. إصابته بالمرض، يذكرها بما كانت قد حظيت به وهي في كتفه من الرعاية والعناية اللتين لم تتأثرا بازدياد ثروته واتساع سلطانه ويشير فيها إلى أنه كان دائم التفكير في زوجته هذه كلما غاب عنها، وكيف أنه أقام لها ما يليق بها من المآثم الفخمة.

ولنذكر أن الآلهة ذاتها لم تكن مصونة من المرض فإيزيس مثلاً شكت من خراج في الثدي بعد أن ولدت، ورع عضه ثعبان في نعله وشفته إيزيس من العضة وهوروس أصيب بالدوسنتريا .. الخ.

أما موت فلم ينظر إليه المصريون نظرة الإسرائيليين أي كعقاب على خطيئة ارتكبها آدم وتقضي بحرمانهم من الحياة الآخرة ولكنهم رأوا في الموت ظاهرة تتبع الحياة حتماً ولا تختلف عنها من حيث الجوهر وإنما هي إحدى حلقاتها في عالم آخر، بل ربما كانوا يعتقدون أن الموتى يأتون نساءهم وينجبون منهن أطفالاً كما أنجب أوزيريس طفلاً من إيزيس بعد موته، ... وهكذا نرى أيضاً أن نصوص الأهرام تتحدث عن حقبة لم يكن فيها سماء أو أرض أو إنسان، حقبة سبقت ولادة الآلهة ومجيء الموت .. إذن فقد خلق الموت مع الحياة.

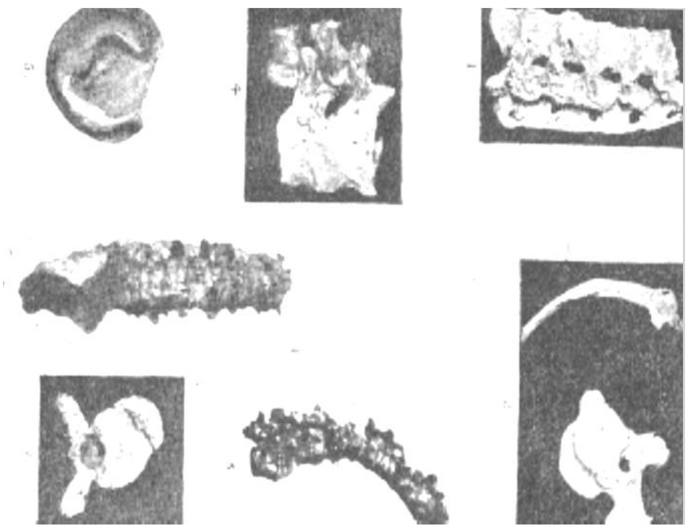
ونتج من تقسيمهم الأمراض إلى هذين النوعين اتجاهان عكسيان في العلاج، اتجاه واقعي عقلي مبني على التجربة والتأمل في الجراحة، واتجاه يبدو لنا سخيفاً وإن كان منطقياً للغاية إذا قبلنا فرضه وذلك في الأمراض الباطنية. وهذا الفرض هو ضرورة التخلص من الروح الشريرة التي سكنت المريض. وهذا بالطرق التي تستجيب الروح لها. وباشتراك الطبيب مع الساحر، فلا يجوز إذن أن نستغرب ألقاب بعض كبار البلاط الذين كانوا يجمعون بين الوظائف الطبية والرتب السحرية.



(شكل ٢١)

إلا أن نشأة التفكير الواقعي أدت فيما بعد إلى محاولة تفسير المرض على ضوء النظريات السائدة في التشريح ووظائف الأعضاء. فاعتبروا مثلاً أن المرض يتسبب من الإفراط في التغذية وأنه يحصل عند انسداد أو امتزاج الأخلاط التي تجري فيها، وسنتطرق إلى ذلك عند الكلام عن الشرايين ..

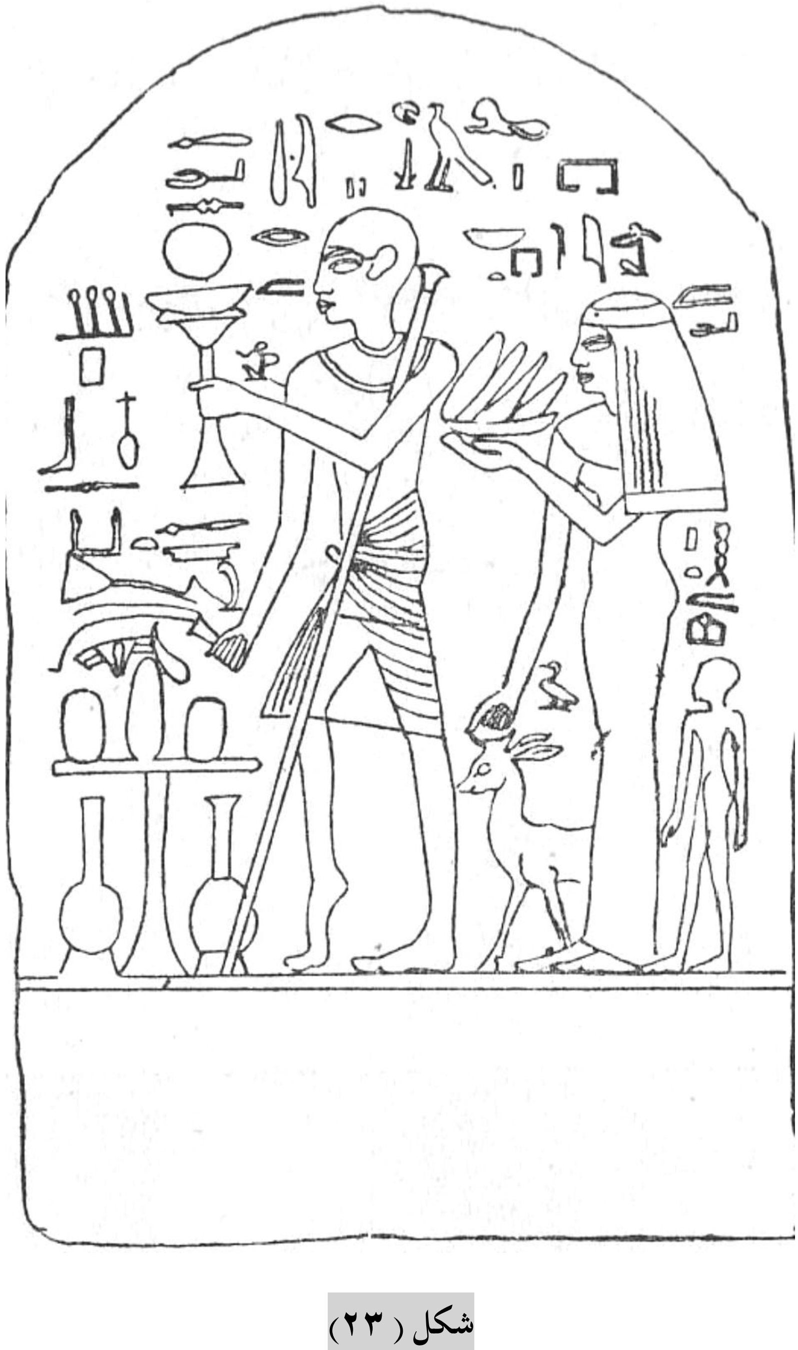
ومع ذلك فإن جل طبعهم يتسم بظاهرة عجيبة هي البعد عن التفسيرات وعن النظريات والاكتفاء بوصف الأعراض، حتى أنهم كانوا يتجنبون التكهن في الأمراض الباطنية وكأنها مستعصية على إدراك الذهن البشري.



(شكل ٢٢)

الأمراض المعروفة :

وبالرغم من تفوقهم في الجراحة وعلم الكسور والرمد فقد وصفوا حوالي ٢٥٠ مرضاً باطنياً وصفاً دقيقاً لا يخلو من الشاعرية في التعبير، مثل تشبيههم الرجل المصاب بالضعف الشديد بالنسمة العابرة، والدمل بالفاكهة الذابلة .. إلا أن علماء الآثار لم يتمكنوا إلى الآن من معرفة الكثير من الأسماء التي كانوا يطلقونها على الأمراض، ومن المصطلحات التي تفهموا معناها: نوع من الحمى المصحوبة بطفح جلدي وقد فسره البعض بأنه الطاعون وآخرون بأنه الجدري، ومنها نوع من الدود وصف بأنه (يتفرج) وقد يكون الدودة الوحيدة ونوع آخر (مستطيل) وقد يكون الإسكاريس أو غيره من الديدان وعالجوه بالخس والأبسنت والبصل وبذر الخروع وجذور الأرمان.



شكل (٢٣)



(شكل ٢٤)

ومنها مرض جاء ذكره أكثر من مرة ووصفت له عدة وصفات وهو مرض مزمن فتاك اسمه "عاع" يحدث هزالاً شديداً، وله علاقة ما بالديدان، وخصص دائماً في الكتابة بالذكر، وقد فسره البعض بأنه البلهارسيا لعلاقته بالديدان ولنوع الشارة المخصصة له ولما يحدثه من ضعف شديد .. إلا أنه يمكن الإجابة بأنه من المشكوك فيه أن يكون قدماء المصريين عثروا على دودة البلهارسيا في الوريد البابي، كما أنه جاءت أوصاف عديدة للتبول الدموي بأسماء أخرى، ولذا فقد رأى آخرون أن مرض العاج هو مرض الأنكلستوما بما يسببه من هزال شديد قد يفتك بالمريض، وأن استعمال المخصص يدل على ما يشكو الصبيان المصابون به من توقف في النمو الجنسي والبالغون من زوال القوى الحيوية ..



(شكل ٢٥)

والمسألة لا تزال مطروحة للبحث .. وفي بردي أيبرز جاء وصف جميل للذبحة الصدرية: "إذا فحصت مريضاً بالمعدة يشكو من آلاماً في ذراعه وصدره وناحية من معدته .. قل بصدده: هذا شيء دخل من فمه والموت يهدده". وفي أمراض القلب عرفوا أن الورم المصحوب بالنهجان بعد أقل مجهود سببه ضعف القلب كما وصفوا الانسكاب التاموري وإدرار البول وقد يكون البول السكري (كلمة ديابيط إغريقية ابتكرها دمتروس

سنة ٢٧٠ ميلادية) وهناك أوصاف عدة لشلل الوجه ولشلل الجسم نتيجة حدوث جرح بالرأس والجمجمة.



(شكل ٢٦) كاركاتور هزلية للصورة السابقة

أما أمراض المعدة "روحيت" فجاءت لها أوصاف عدة شملت أمراضاً مختلفة لأعضاء التجويف البطني. ولاشك في أن مرض الدرن كان منتشراً فقد اكتشفت جثث مصابة بوت ووصلت إلينا عدة صور وتماثيل له (شكل ٢١)، وقد عزا البعض موت عنخ آمون مبكراً إلى إصابته بالتدرن الرئوي إلا أن ذلك لم يثبت بالدليل القاطع.



(شكل ٢٧)

أما في الأمراض التناسلية فهناك عدة أوصاف لمرض يشبه السيلان مشابهة تامة. ولكن لم يوجد للزهري أثر إذا استثنينا حالة (اكتشفنا الدكتور زكي سعد في حلوان) ودرسها الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين بالأشعة فوجد عظم الساق مصاباً بالتهاب في غشائه يشبه ما يسببه الزهري ...

وبعض قطع أخرى مشتبه فيها ... إلا أن وجود هذا المرض في العالم القديم لم يقم عليه برهان حتى اليوم. وقد اكتشف روفر في أنسجة بعض موميات الأسرة العشرين بعد تحضيرها بطرق خاصة بويضات البلهارسيا وتصلب الشرايين.

وقد درس الدكتور محمد كامل حسين مجموعة العظام الموجودة الآن في متحف التشريح بكلية طب جامعة القاهرة ووجد أن الأمراض الروماتزمية كانت ولاشك منتشرة انتشاراً لا نعرفه اليوم ... والكثير من تلك العظام مصاب بتكلس في أربطة المفاصل مثل ما يحصل في مرض بكترف (Bechterw**) وهذا نفس استنتاج روفر (شكل ٢٢)، كما أنه وجد (**exostoes**) بالجمجمة أو زيادات موضعية في العظم تشبه ما يحدث حول أورام الأم الجافية .. وفي متحف كارلزبرج بكابنهاجن رسم دقيق لحالة قدم قفداء (**pes equinus**) (شكل ٢٣) نتيجة إصابة بشلل الأطفال نجد مثلها في مومياء وصفها اليوت سميث (شكل ٢٤).**



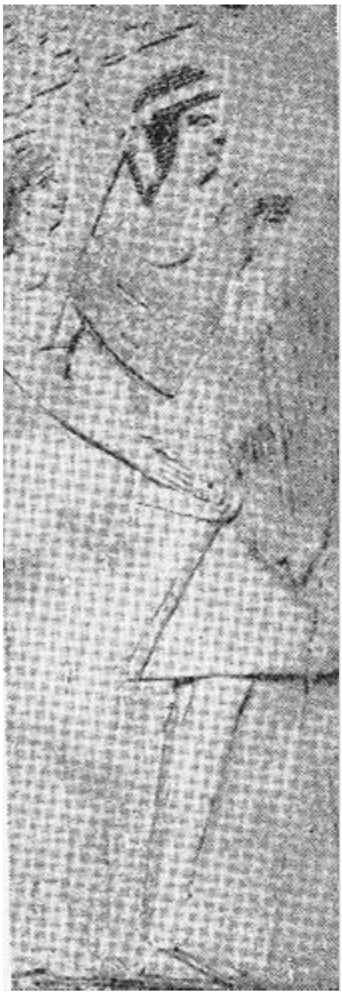
(شكل ٢٨)

أما البدانة فكان ينظر إليها بشيء من الازدراء. ومع أنها كانت منتشرة في الطبقات العليا فإن أصحاب المقابر فضلوا أن يمثلوا مفتولي العضلات على عكس حالتهم الحقيقية، إلا في بعض الحالات النادرة. وقد جمعنا بعض أمثلة لهذا تدل على معرفتهم لمختلف أنواع البدانة وعلى حدة ملاحظتهم وواقعية رسمهم... منها ملكة البونت (الصومال) المرسومة في معبد الدير البحري (شكل ٢٥) وهي مصابة ببدانة جسيمة

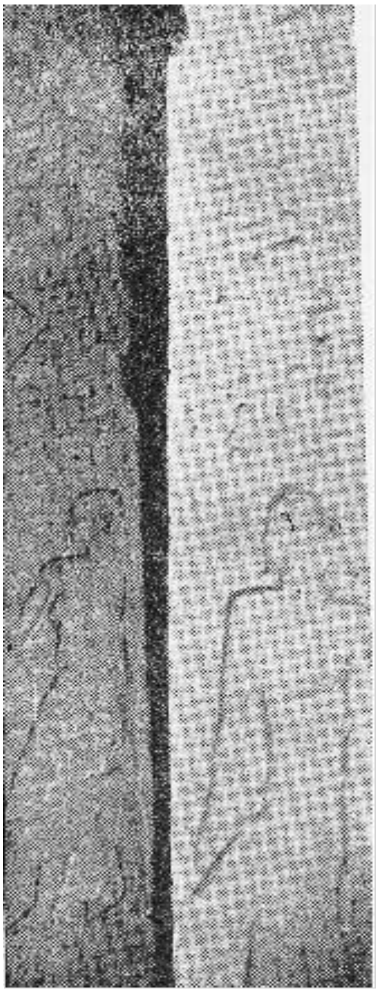
وقد قال البعض أنها مرض الفيل وإنما رأينا الذي أبديناه في مقال نشر في مجلة مصلحة الآثار المصرية هو أنها كانت مصابة بمرض دركوم وقد ظهرت تلك البدانة مزرية إلى درجة أن بعض زوار المعبد قروناً بعد بنائه رسموا لهذا النقش "كاريكاتوراً" (رسم ٢٦).. ومنها التمثال الجميل الموجود في المتحف المصري والمعروف باسم شيخ البلد لشدة شبهه لشيخ بلد عمال الحفائر الذين اكتشفوه (صفحة ١ من الغلاف)... ومنها بدانة الفرعون أخناتون المنحصرة في أسفل بطنه وثدييه وإليتيه وأعلى الفخذين مما جعل مكتشفه يلتبس في جنسه ومما ينم عن مرض في الغدد الصماء (شكل ٢٧).. ومنها نقش حارس باب معبد (شكل ٢٨) وأخيراً منها نقوش في مقبرتين بسقارة تمثل بعضها "نيفر سشم بتاح" بديناً على جدار (شكل ٢٩) ونحيفاً يافعاً مع زوجته على جدار آخر (رسم ٣٠)، كأن وجود السيدة أوجب الاهتمام بمظهره، والآخر يمثل "عنخ ماهور" نحيفاً على واجهة المقبرة وبديناً في ظلام الجدار الداخلي (شكل ٣١).



(شكل ٢٩)



(شكل ٣٠)



(شكل ٣١)



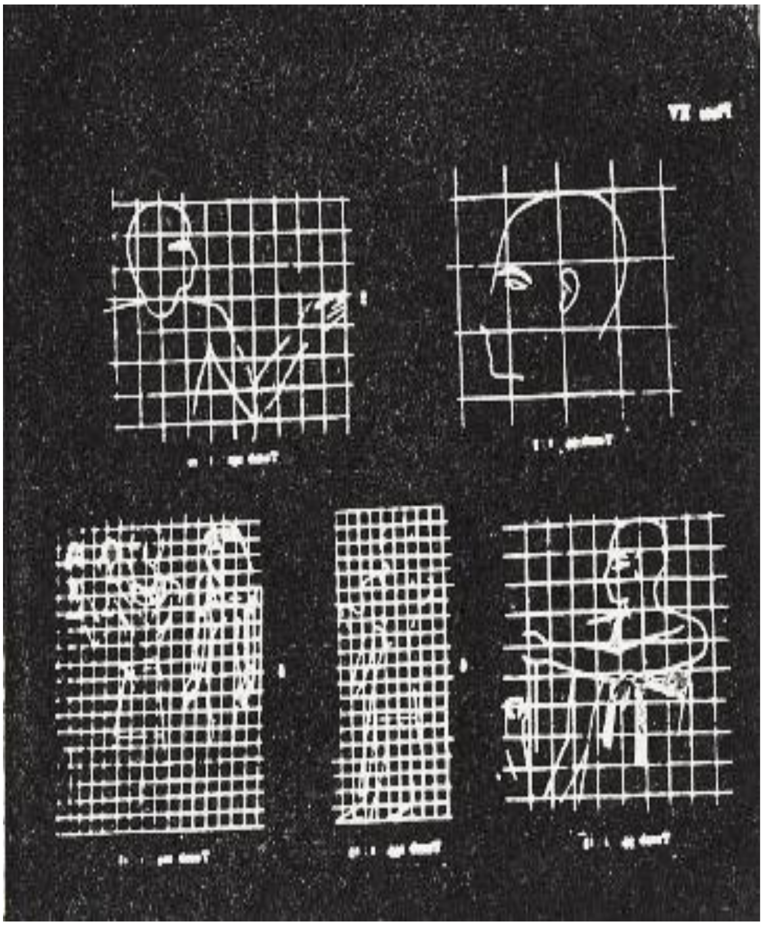
(شكل ٣٢)

وبالعكس فقد صور الهزال والجوع بأبشع مظاهرهما في تصوير للمجاعة ظهر فيه رجل يأكل البراغيث التي كانت تعيش على جسمه النحيل.

وقد ادعى جرينوالد أن الملكة كليوباترا كانت مصابة بتضخم الغدة الدرقية وبني هذا الادعاء على رسم لها بمعبد دندرة (شكل ٣٢).. إلا أني أعتقد.. بعد دراسة الأصل بدندرة، أن نتوء الرقبة في هذا النحت مظهر كاذب ناتج من طريقة النحت البارزة في استدارة ronde bosse الشائعة في عهد البطالسة، كما هوا ظاهر من ارتفاع حواف الإبطين والكتفين والحدين أيضاً في هذه القطعة نفسها.

التشريح وعلم وظائف الأعضاء ـ التحنيط :

إن معلومات المصريين القدماء عن التشريح بالرغم من خيال بعض المؤرخين الذين بالغوا في ذكرها.. لم تتعد في الواقع ما يتطلبه علاج الكسور والجراح السطحية التي تحدث في الحرب والصيد.. وكذلك الطقوس المتعلقة بالتحنيط. واحتياجات الرسامين والنقاشين الذين كانت تقيدهم في تمثيلهم الجسم البشري قوانين دقيقة مبنية على إلمامهم بالتشريح السطحي له وعلى فكرتهم عن جماله ولذا فإننا نجد أن تلك النسب تختلف باختلاف عصور حضارتهم كما هو واضح من المربعات أو التكعيبات التي كان الرسامون يستعملونها في فنهم (شكل ٣٣).



(شكل ٣٣)

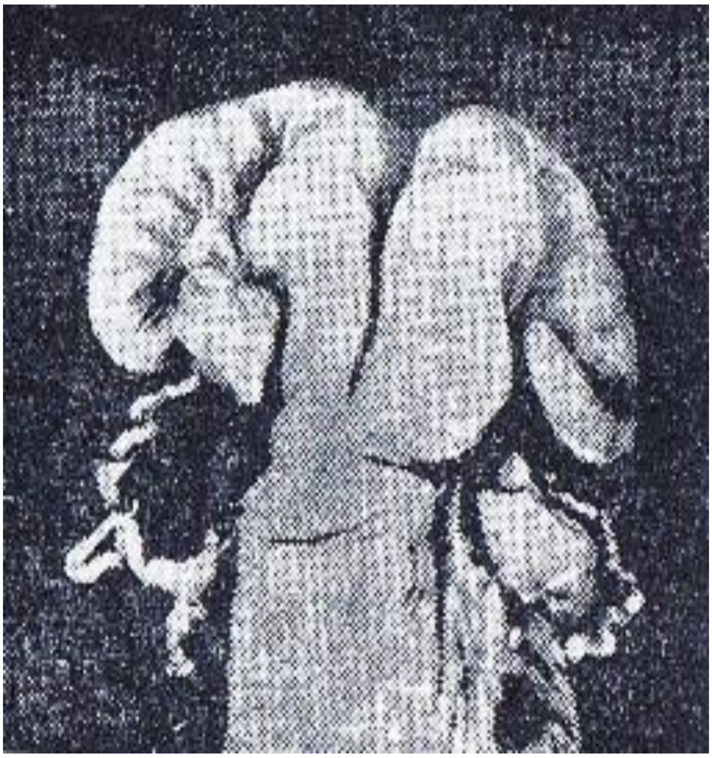
وربما ظن البعض أن ممارسة التحنيط قرناً بعد قرن قد أسهم في تغذية علم التشريح ولكن الحقيقة أن الذين زاولوا هذه المهنة كانوا في مرتبة الصناع. وكانوا على قول الإغريق من أحط الناس مقاماً، والعلة في ذلك هي أن الدين حظر المساس بالجثة وامتهانها لقدسيتها، ولهذا فإن

القائمين بالتحنيط كانوا يعتبرون من أتباع سيت الممقوت الذي عبث بجثة أخيه ومثل بها شر تمثيل بأن مزقها إرباً ألقى بها في مواضع متفرقة.

وكان المحنط يقوم بشق البطن ويدخل يده في تجويفها، فيخرج منها محتوياتها دون تمييز بينها ثم يفتح الجمجمة عن طريق الأنف لينتزع منها المخ بأجهزة حادة دون معرفة كذلك لأجزائه المختلفة.

إلا أن ممارسة التحنيط في مصر الفرعونية قد بصرت المصريين بطبيعة وشكل محتويات الجسم الداخلية فتفرقوا في هذا الميدان على الشعوب الأخرى التي كانت تحرق الجثث أو تدفنها.. ثم أنها عودت العقول على هضم فكرة أن فتح الجثة لا يعد تمثيلاً بها وأتاحت لأطباء العصر البطليموسي تشريحها تشريحاً منظماً لا تخبط فيه بينما كان التشريح محرماً على كافة شعوب العالم الأخرى.

على أن الكثير مما عرفه المصريون عن أعضاء الجسم مستمد من تشريح الحيوانات، فإن الأسنان التي استعملت في الكتابة الهيروغليفية مستمدة من ناب الفيل  وكتابة الرحم  كذلك هي صورة رحم البقرة (شكل ٣٤) كما أن اسم الرحم "حميت"، هو جذر يظهر في اسم أنثى الإنسان والحيوان على السواء وكان يسمى أيضاً (mwt rmt) أي أم الرجال وهذا يقارن الكلمة اللاتينية للرحم وهي (matrix) أي الأم.



(شكل ٣٤)

لم تذكر الغدة الدرقية في بردى برلين.. والمرجع الوحيد الذي قد يكون ذكرها هوا بردى سميث في الحالة رقم ٣٤ وهي حالة نقل طرف الترقوة الأنسى. فقد جاء في وصفها أن الترقوة مربوطة إلى أعلى القص (النصاب) حيث تصل إلى الزور الذي يوجد فوقه الـ (h. nbbjt). وهذه الكلمة مركبة من لفظة "بيويت" (الترقوة) ومن كلمة "حت" المستعملة قبل اسم كل جزء من أجزاء الذبيحة التي تقدم الآلهة كقرابين مثل الكبد والطحال الخ.. ولذا فإن أيبل استنتج أن هذه الكلمة تصف قطعة من

اللحم توجد في مقدمة الرقبة تعتبر "لقمة طيبة" تقدم للآلهة وإن هذه القطعة ما هي إلا الغدة الدرقية.

وكان يكتنف علم التشريح كثير من التعثر، ففي علم العظام مثلاً لم تكن هناك أسماء للعظام ذاتها وإنما كان الاسم يطلق على الطرف كله بما يحتويه من عظام وعضلات وأعصاب وشرايين... الخ.

وكانوا يربطون بين كل عضو أو طرف وبين إله معين وفلك معين كما هو ظاهر من بعض التعاويذ: "رأسك رع، ذراعك هوروس، سرتك نجم الصباح، الخ" ... ويعتقدون أن كل عضو منها ذو حياة خاصة مستقلة وأن له روحه وأهوائه وحياته الخاصة.

عن الشرايين (ميتو) والنبض:

ولم يميزوا بين كل من الشريان والوريد والوتر والعصب فقد أطلقوا عليها جميعاً اسم "ميتو".

وكانوا يعرفون النبض ويعبرون عنه بقولهم أن "القلب يتكلم – عن طريق الشرايين –" وإن كانوا لم يفطنوا إلى وجود الدورة الدموية.. وكانوا يصفون نبض الرقبة بقولهم كذلك أن "العنق يتكلم" وكانوا يعرفون مواقع النبض بالمرض ولكنهم لم يتمكنوا من عدة لافتقارهم إلى أجهزة لقياس مسافات الزمن الدقيقة ولنذكر أن إيبوقراط ألف سنة بعد بردي أيبرز كان يجهل النبض وأن أول من استطاع عد النبض هو هيروفيلوس الذي عاش

في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد واستخدم في قياسه ساعة مائية وجدت نماذج منها منذ تحوتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة) ومنفتاح (الأسرة التاسعة عشرة).

وكان للشرايين (ميتو) أهمية كبيرة عي علم وظائف الأعضاء وقد احتوى بردي أيبرز على كتابين عنها، جاء في أحدهما أن عددها ٤٦ وفي الآخر أنها ٢٢ – كما أن بردي برلين يحتوي على جزء منها فيه بعض الاختلاف عن بردي أيبرز.

ولنضرب مثلاً للحالة التي كان عليها علم التشريح بأن نذكر ما ورد في هذا الشأن في بردي إيبرس.. يقول هذا البردي أن في مركز الرأس أربعة شرايين (ميتو) تتفرع إلى مؤخر الرأس، وأن الروح تدخل عن طريق الأنف وتتجه إلى القلب والرئتين التي توزعها على تجويف البطن، أما فتحتا الأنف فهما شريانان يوصلان إلى العين، وهناك أربعة شرايين يوصلان الروح والماء إلى الكبد حيث تتكون الأخلاط التي ينقلها الدم، وهناك شريانان متصلان بالأذن اليمنى تدخل منهما الحياة وآخران متصلان بالأذن اليسرى يتسلل عن طريقهما الموت.

وكانوا يعتقدون أن الميتو مليئة بسائل وهواء وفضلات وأنها قنوات تنقل الدموع والبول والسائل المنوي ومخاط الأنف.. الخ من القلب إلى أجزاء الجسم التي تتجه إليها وإن كان يبدوا أنهم لم يدركوا أن الدم يجري فيها. ودام الاعتقاد أنها مليئة بالهواء حتى وقت الإغريق، (ومنها

تسميتهم لها (arteries) وحتى وقت أطباء القرون الوسطى وهذا لأنها لا تحتوي على دم بعد الموت. ونتيجة اعتقادهم أنها هي الموزعة لكل الأخلاط والسوائل من القلب إلى مختلف الأعضاء أن القلب كان يعتبر المحرك المركزي لكل نشاط في الجسم. فإذا اختل الاتصال بين القلب والشرايين أو إذا تسرب إلى هذه الأخيرة إفراز غير عادي سبب ذلك المرض، ومن هنا كانوا يعالجون العضو المسئول عن ذلك الإفراز. فإذا ظنوا مثلاً أن جزءاً من البراز تسلل إلى الشرايين عالجوا الشرج.

وإذا كانت هذه المعلومات تنم عن خيال خصيب فإنها تحتوي مع ذلك على مبادىء التفسير العقلي للجسم ووظائفه للمرض، وعلى مبادىء التجرد من التفكير اللاهوتي.

فن التشخيص:

أما طرق فحص المريض فكانت تعتمد على الخبرة وتتسم بدقة الملاحظة، وكان هذا الفحص يبدأ عادة باستجواب المريض استجواباً دقيقاً، ثم يتبع الاستجواب فحص شامل بالنظر يبدأ بالوجه، فيلاحظ لونه وإفرازات الأنف والجفنان والعينان.. الخ ثم تشم روائح الجسم من عرق ونفس، ثم يأتي فحص البطن بالأعضاء الأخرى (أوذيما، رعشة، دوالي، براز، عرق، لعاب.. الخ).. ويتبع الشم الجس والطرق وتقدير حرارة الجسم.

ففي الجسم وصفوا كسر الجمجمة كالنحاس المتجعد تحت تأثير الحرارة وورماً ينبض تحت اليد بنافوخ الطفل غير الملتئم وفرقوا بين الأورام المتموجة وغيرها (انظر باب الأورام)، وبين ارتفاع الحرارة الموضعي والارتفاع العام، أما عن الطَرْق فقد وردت في بردى جونكير هذه العبارة: "ضع أصبعك عليه واطرقه".

ثم كانت تجيء الاختبارات الوظيفية، مثلاً:

١- قل للمريض: "انظر إلى اليمين ثم إلى اليسار وإلى فوق وإلى أسفل" فإذا لم يكن المريض هذا شخص نقلاً في فقرات الرقبة.

٢- "ارفع رأسك افتح فمك". وذلك لفحص الفك.

٣- ابسط ساقيك ثم اثنهما وجر قدمك (وذلك في كسر بالجمجمة).

وكانت هناك طرق واختبارات خاصة للولادة وأمراض النساء سيجيء ذكرهما فيما بعد.

ولم يفت المؤلفين في الطب وصف سير المرض وأهمية ملاحظة أطواره في التشخيص والتكهن فقد جاء في بردي سميث في وصف مرض لا شك أنه التيتانوس.

ثاني فحص: إذا أصيب الجسم بالحمى وحدثت به تقلصات.. وإذا وجدت وجه المريض وقد غطاه العرق وجمدت عروق رقبته وأسنانه وظهره وازرق وجهه وانقبض فمه والتوى حاجباه وبدا وكأنه يبكي (risus sardonicus?) فقل: "هذا مرض لا أقدر له على شيء"...

الفحص الثالث: ولكنك إذا لاحظت أن المريض شاحب الوجه وأنه بدت عليه علامات الاسترخاء فضع في فمه أنبوبة ملفوفاً حولها قماش وعالجه وهو جالس حتى يصل إلى النقطة الحاسمة من مرضه.

ولم يكتف الأطباء بوصف أعراض المرض بل ذيلوا تشخيص بما يتوقعونه من نتائج مثل: "ألم في الذراعين والصدر من ناحية القلب، أنه مهدد بالموت". وهذا الوصف يلائم وصف الذبحة الصدرية...

على أنهم لم يذهبوا إلى أبعد من ذكر الأعراض لافتقارهم إلى علوم أخرى تعين على ذلك. من هنا كانوا يذكرون العرض على أنه المرض نفسه، مثال ذلك أن يقال: "دم في بول".. الخ.

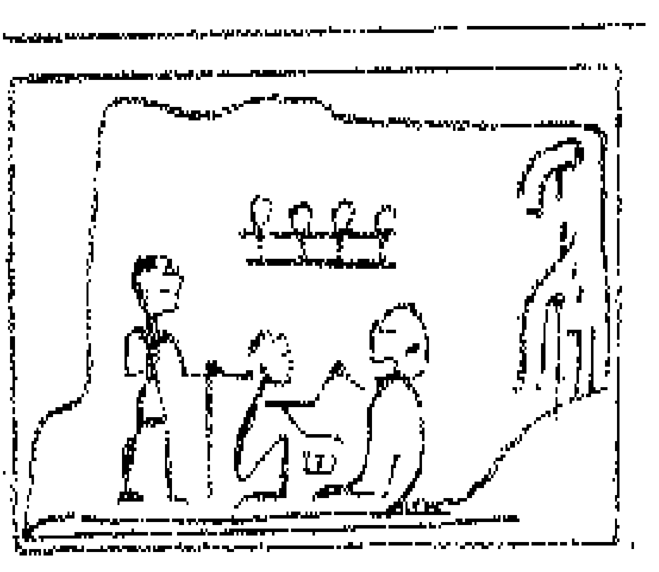
المحاضرة الثالثة

الجراحة

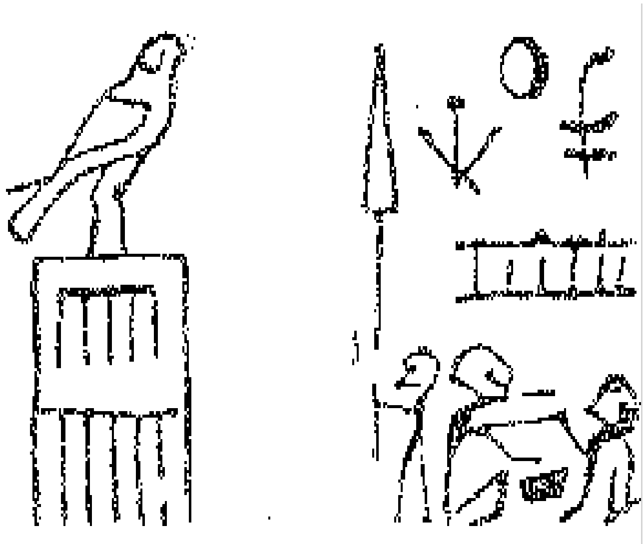
سنتحدث اليوم عن الجراحة والولادة والرمد وفروع التخصص، وقد استقينا أغلب معلوماتنا عن الجراحة من لفافة أدوين سميث.. إلا أننا لم نعثر إلى الآن على مؤلفات علمية تصف عمليات الجراحة كما كانت تجرى. ولكن هناك نقوشاً كثيرة تكمل على الجدران ما كتب على صفحات البردي.. ويروق لنا أن نتصور أن تلك النقوش المخفية في ظلام المعابد كانت لوحات تدريسية تكمل تعاليم الكتب وتصحب التلقين الشفوي في سراديب المعامل السرية ولا تعرض إلا على المختبرين من التلاميذ.. شأنها شأن النقوش والرسوم اللاهوتية التي كانت تزين القاعات السرية وغرف الآلهة بالمعابد والتي كانت تصور بشكل حي أسرار الدين الخطيرة للمريدين من التلاميذ.. وإلا فما هو الغرض من نقش تلك العمليات.. أكانت تمثل وقائع من ماضي الموتى.. أم كان يرمي إلى أحيائها بالسحر فيما بعد لضمان أجرائها للمتوفى إذا احتاج إليها في حياته الآخرة.. وهل كان تمثيل الختان للتأكد من إجرائه الأولاد الذين قد يرزقهم المتوفى بعد موته؛ ما هذه الفروض كلها إلا تخيلات تخمينية تافهة الأسس قدمت لإجابة للأسئلة التي لا تزال مطروحة للبحث إلى اليوم.

وقد ذكرنا النقشين الموجودين في مقبرة "عنخ ماهور" اللذان يمثلان الختان (شكل ١٠)، وبينما لا يوجد محل للشك في معنى هذين النقشين فإن نفس المقبرة تحوي نقشين آخرين يتركان مجالاً كبيراً للتخيل في التفسير مما لا يسمح بالجزم بما يمثلانه. ويبين هذا النقش أشخاصاً يعنون بقدمي ويدي شخص آخر.. ممسكاً ذراعه بيد منقبضة وقد رأى فيهما البعض رسماً للتدليك و"المانوكور" و "البديكور" والبعض الآخر عمليات جراحية.. وقد دون الفنان الذي قام بالنقش عبارة في أسفل كل من اللوحتين، الأولى: "انته واتركني وشأني" والأخرى: "لا تسبب لي كل هذا الألم..".

وهناك نقشان متشابهان بالرغم من أن الأول خاص بالملك "أحا" ووجد في أبيدوس (العرابة المدفونة) وأن الثاني خاص بالملك "دجير" (شكل ٣٤، ٣٥) ووجد في سقارة. والاثنان يرجعان إلى أول عصر الأسر ومتصلان بأعياد اليوبيل الملكي "الحب سيد" التي كان الغرض من طقوسها إعادة قوى الحياة إلى الفرعون الكاهل وبالتالي إلى الدولة بأجمعها.



(شكل ٣٤)



(شكل ٣٥)

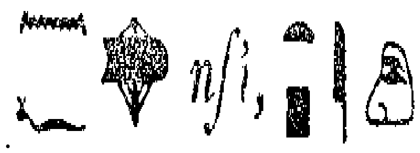
ويمثل كلٍ من الشخصين شخصاً جالساً يصوب نحو رقبة شخص آخر آله رفيع مستطيلة يمسكها من طرفها. أما هذا الشخص الآخر فهو ساجد منحن إلى الوراء وذراعاه مربوطان خلفه، وقد فسرهما بتري (petrie) وغيره بأنهما يمثلان ذبح الأسرى أو القرابين البشرية في حفلات جناز الملك.. إلا أن فيكانتيف (vikentieff) قدم لتفسيرهما نظرية أخرى فقد قال أن هذين النقشين – بما أنهما متصلان بمراسيم "الحب سيد" – فإنهما يرمزان إلى إعادة القوى الحيوية إلى الملك العجوز والدولة بأن شبه فيهما الشعب بمريض قرب من الاختناق وشبه طقوس اليوبيل بعملية إعادة النفس بفتح القصبة الهوائية (التراكيوتومي).. أما زهرتي اللوتس والبردي (شارة الشمال وشارة الجنوب) الموجودين على نفس الحجر فإنهما تسمحان باعتبار هذا النقش كتابة تصويرية تقرأ على الشكل الآتي: "يتقبل الشمال والجنوب هواء الروح".

ويستند فيكانتييف في ذلك إلى وضع الشخصين وطريقة مسك الآلهة المدببة اللذان يرجحان أنها عملية جراحية وليست قتلاً غادراً أو تحنيط جثة حيث أن الجثة ما كانت وضعت في هذا الوضع الساجد.

كما أنه قدم حجة لفظية تؤيد معرفة المصريين لهذه العملية وهي أن فعل "سرق" ومعناه "تنفس" تليه في الكتابة الهيروغليفية علامة المشرط



بينما أن أفعالاً أخرى بنفس معنى التنفس تليها إشارات القلع أو الأنف البشري tepi



مما يوحى بأن لفظة "سرق" هذه المخصصة بالمشرط تعبر عن نوع خاص من التنفس هو التنفس بشق القصبة.. ثم أن الكلمة المصرية "سرق – حتب" أي فتح الزور أو إعطاء النفس تخصص أيضاً بنفس المشرط.. وهذه الحجج تبرهن في نظرة فيكاتتييف على أن المصريين كانوا يعرفون ويجرون عملية التراكيوتومي. وقد أيد الأستاذ محمد كامل حسين وجهة نظر فيكانتييف وأضاف أن المشرط الخاص المبين في الرسم شكله شكل المعين الذي يسمح بتغيير اتجاه القطع كما هوا واجب في تلك العملية.

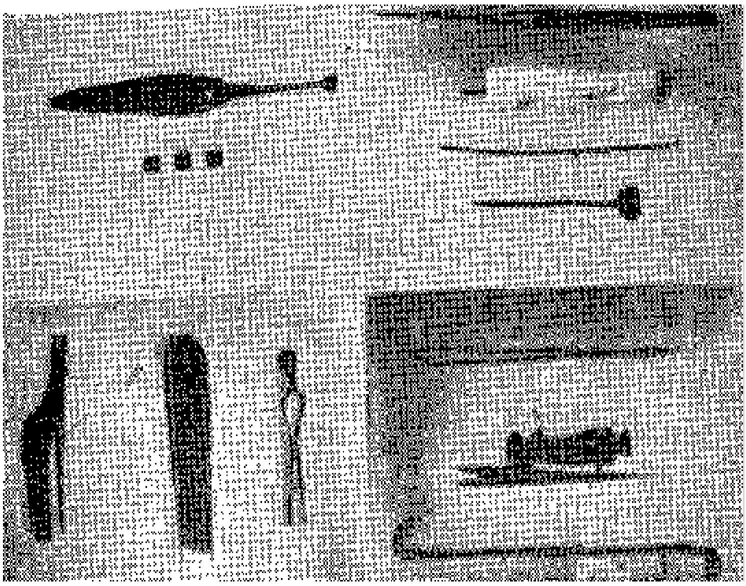


(شكل ٣٦)

ولقد ذهبت إلى بعض التفصيل في هذا الشأن لأبين الصعوبات التي يواجهها علماء التاريخ في جناء المعلومات عن تلك العصور البائدة ونوع وطرق الاستنتاجات التي يصلون إليها.

ومن العمليات الأخرى التي كان المصريون يجرونها عمليات البتر والخصي.. وأما عملية التربية فقد كانت تجرى حتى في العصور السابقة لمينا. والغالب أن إجراءها كان في أول الأمر متصلاً بالسحر وأن الغرض منها كان إخراج الأرواح الشريرة من ذهن المريض. إلا أن بردي أدوين سميث ذكرها لعلاج حالة كسر في الجمجمة تحت الجلد..

وقد وصل إلينا تصوير جميل لعدة آلات جراحية على جدار معبد كوم امبو (شكل ٣٦) والمتاحف تزخر بآلات يظن أنها كانت تستعمل في الجراحة إلا أنه لا يمكن تحديد استعمالها بالضبط أو التأكد من أنها كانت حقيقة مستعملة للجراحة.. منها المخالب والمقصات والمشارط والإبر ...الخ (شكل ٣٧).



(شكل ٣٧)

الجروح:

كانت تعالج الجروح النظيفة بالخياطة والأربطة اللصاقة والأخرى باللحم الطري أول يوم ثم بالأعشاب القابضة والعسل. ولربما كان الغرض من اللحم الطري وقف النزيف أما العسل فإنه محلول مركز له فائدة أكيدة.

الكسور:

وجدت آثار عدة لها في الجثث وهذا لأن العظام لا تتحمل وقد بدأ دراستها روفر وأنشأ لها علم الباليوباتولوجيا (علم الأمراض عند القدامى) وتبعه كامل حسين في هذه الدراسة وقد ساعد على هذا اكتشاف مقبرة في طيبة تحوي ستين جثة مصابة بجروح مختلفة والغالب أنها كانت مدفناً لقتلى معركة هائلة ولربما كان أبشع مثال لتلك الكسور ما أصاب جمجمة سقننرع أول من نادى بالجهاد ضد الهكسوس من الكسور والسهام التي أدت به في الميدان (شكل ٣٨).



شكل (٣٨)

وقد كانت حالات الكسر في عظم الفخذ كثيرة وكانت تشفى تاركة ضخماً حول محل الالتئام وقصراً في العظم، أما كسور العضد فكانت نتائجها أحسن من حيث استقامة العضو ووظيفته، بسبب ضعف القوى العضلية الجاذبة لطرفي الكسر. وقد وجدت حالات عدة لكسر الزند

وحده والمرجح أن تكون نتيجة لضربة مباشرة على العضد المرفوع للدفاع عن النفس (اليوت سميث) وكانت تلك الكسور الفردية تشفى بسهولة.

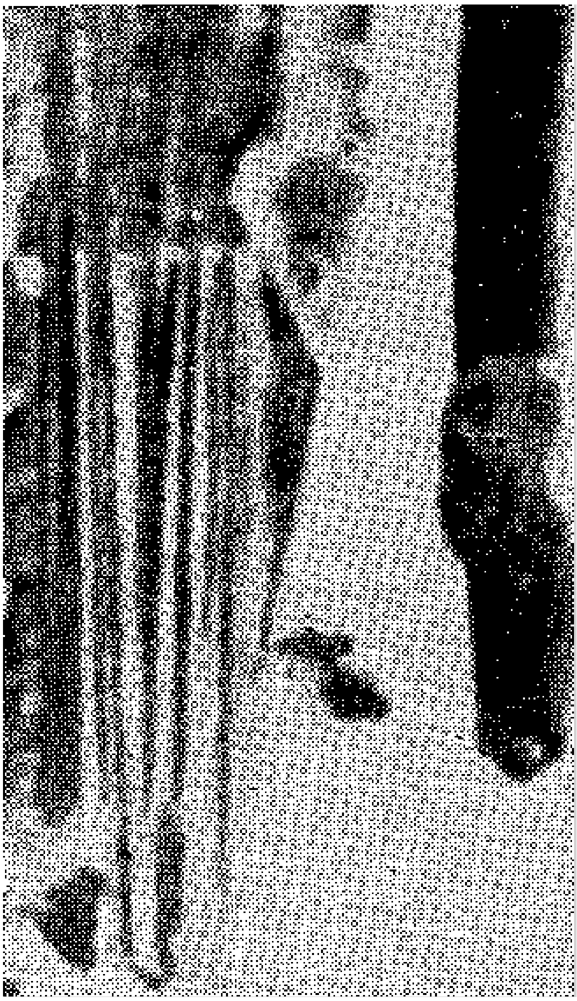
وقد عرف (الفلاح العبقري) مؤلف بردي سميث أهمية قرقرة العظام تحت اليد في تشخيص الكسور وفرق بينهما وبين الجزع الذي فسره بأن الأربطة تصاب دون أن يتغير وضع العظام وشبه كسر الجمجمة أحياناً بإناء من الفخار مثقوب وأحياناً بالنحاس المتجعد تحت تأثير النار.. كما أنه في التكهن عن مآل الحالة عرف قيمة جس جرح الرأس وسوء مآل تلك الحالات التي لا يشعر فيها بنبض بالمخ وتلك التي يحس فيها العظم منخفضاً داخل المخ. أو التي يلاحظ فيها تصلب الرقبة والنزف تحت الملتحمة والنزف من المنخرين ومن الأذن.. كما وصف كسر العمود الفقري وما يتبعه من شلل رباعي وتبول لا إرادي وانتصاب واستمناء دون فقدان الوعي، وخص الاستمناء بكسور وسط الرقبة فقط، ومما يدل على إجرائه الصفة التشريحية لتلك الحالات أنه يقول في وصف تلك الكسور أن الفقرة تنغرز في الفقرة التي تليها كما تغوص القدم في أرض منزرعة.

ولقد عرفت الجبائر واستعملت منذ قبل عهد الفراعنة وعثر أليوت سميث على كثير منها في مقابر الأسرة الخامسة (شكل ٣٩، ٤٠)، وكانت مكونة عادة من قطع من الخشب أو القشرة أو الكتان متصلة كل منها بالأخرى بواسطة أربطة ومبطنة بالكتان. أما من حيث وضعها فقد كان العضو المجبر يحاط بها كالاسطوانة وكان يراعي أن تصل إلى

المفصلين أعلى وأسفل الكسر، ولم يعرفوا مزايا الشد التي فطن عليها الإغريق بعدهم. إلا أنهم كانوا يردون الكسور والخلوع بمهارة فائقة كما هو ظاهر من صورة عمارة أيبى، ومن التعليمات الواردة ببردى أدوين سميث والخاصة بكسر في الترقوة: "إذا فحصت رجلاً مصابة بكسر في الترقوة، ووجدت بها قصراً، فقل: "هذا مرض سأعالجه". والقه على ظهره، ثم وضع بين اللوحين وسادة حتى يبتعد جزءا ترقوته ويرجع العظم المكسور إلى موضعه. وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الأنسى من ذراعه. وعليك أن تضمده "بالأيمرو" ثم بالعسل في الأيام التالية".



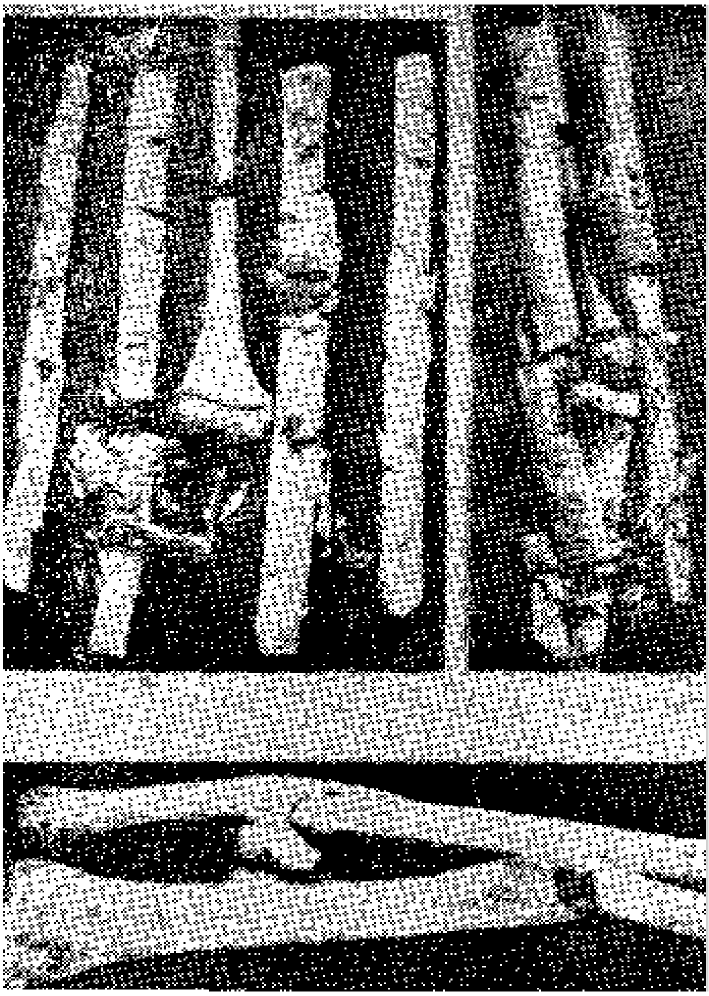
(شكل ٣٩ أ)



(شكل ٤٠ ب)

وفي الحالة **٢٥** من نفس البردي توجد إرشادات خاصة بخلع الفك الأسفل: "إذا فحصت رجلاً عنده خلع في الفك الأسفل ووجدت فمه مفتوحاً ولا يستطيع قفله فضع أبهاميك على طرفي فرعي الفك

داخل فمه وأصابع يديك تحت ذقنه ويجب عليك بذلك أن ترده إلى الخلف فيعود إلى مكانه".



(شكل ٤٠)

وتلك العبارات تحتوي على وصف دقيق لتشخيص المرض وعلاجه بطريقة قال عنها الأخصائي كامل حسين أن الطب الحديث لم يجد حتى الآن أحسن منها، بل أنها ترمي إلى درجة كمال في الشفاء لا داعي عملياً لتحقيقها.

أما كسر الأنف فكان يعالج بإدخال لفائف صغيرة من الكتان داخل فتحات الأنف لحفظ شكله.

ولكن الكسور المفتوحة لم تعالج بنفس النجاح فإن معظم ما وجد منها في الجثث لم يلاحظ فيها أي تغيير في العظام مما يدل على حدوث الوفاة بمجرد وقوع الحادث.

الحروق:

ولننتقل الآن إلى الحروق، وقد استقينا معلوماتنا عنها من لفائف لندن وأيبرز. وكانت تعالج بالعسل والزيوت والمواد الدهنية مصحوبة بالتعاويذ. ومثال هذا الحوار الآتي الذي كان يقرأ عند وضع مزيج من لبن امرأة أنجبت ولداً ذكراً وصمغ وشعر تيس على الحرف:

الرسول: ابنك هوروس يحترق على هضبة الصحراء

إيزيس: هل يوجد هناك ماء

الرسول: لا يوجد هناك ماء

إيزيس: عندي ماء في فمي ويجري نيل بين فخذي ولقد حضرت لأطفيء النار.

الأورام:

درس بردي أيبرز الأورام ووصف الأورام الدهنية والفتق والتمدد الشرياني، وأوصى عند فحصها بجسها لمعرفة ما إذا كانت تتموج. فإذا كانت متموجة أوجب اعتبارها سائلة أو دهنية ومعالجتها بالمشرط أو الفصد أو الكي وأضاف قوله: "ومنها ما هي أبشع وهي التي تظهر البثرات ويتلون الجلد وترتسم الرسوم على سطحها وتحدث آلاماً شديدة فقل عنها: "أنه ورم الإله خونسو. ولا تفعل شيئاً" وهذا الوصف يتفق مع الجمرة الخبيثة أو السرطان".

والوسيلة لعلاج الأورام عامة كانت المشرط بشرط تجنب الأوعية الدموية واستعمال الكي لمنع النزف. وكان الكي يجري بواسطة آلة معدنية مدببة يوضع طرفها في فتحة في قطعة من الخشب ثم تدار بسرعة حتى ترتفع حرارتها، وهناك جثة ظهرت على فخذها آثار لمثل هذا الكي (شكل ٤١).



(شكل ٤١)

وقد قيل إن المصريين كانوا يعرفون التخدير وكذلك الترقيع بأعضاء أشخاص أخرى.. إلا أن الشك في صحة هذا مسموح..

الولادة :

لم تكن المصريات تتضايقن بالحمل أو تنفرن منه.. ومع أنه وجدت وصفات عدة للحيلولة دونه أو لإحداث الإجهاض إلا أنهن كن يلذن بالآلهة مبتهلات أن تساعدهن على الإنجاب. ويتضح ذلك من كتابات دونت على كثير من التماثيل.

وكانت هناك طرق متعددة للتأكد من خصب المرأة أو عقمها، ومعظمها مبني على فكرة وجود اتصال في المرأة الخصيب بين تجويف المهبل وبقية الجسد وبعض هذه الطرق قد ورد في لفائف كاهون وكارلزبرج.. منها مثلاً وضع "لبوس" من الثوم في المهبل ثم ملاحظة رائحته في الفم.

وقد ورث إيبوقراط وصفة لبوس الثوم هذه من المصريين وأخذها منه العرب والأوروبيون في القرون الوسطى حتى القرن الثامن عشر. ويبدو أن هذه الطريقة ليست خيالية فإن الأستاذ الدكتور أحمد عمار يرى أن المادة العطرية في الثوم قد تمر من البوق إلى التجويف البريتوني إذا كان البوق سالكاً ومنه إلى الرئتين فالنفس. ونبهى إلى أن السيدات اللاتي يحقنن بمادة الليبيودول في الرحم لمعرفة ما إذا كان البوقان سالكين يشعرن بطعمه في الفم إذا كان سالكين.. أما الطرق الأخرى فإنها تبدو غريبة.. ومنها تبخير مهبلي بروث فرس البحر. فإذا طردت

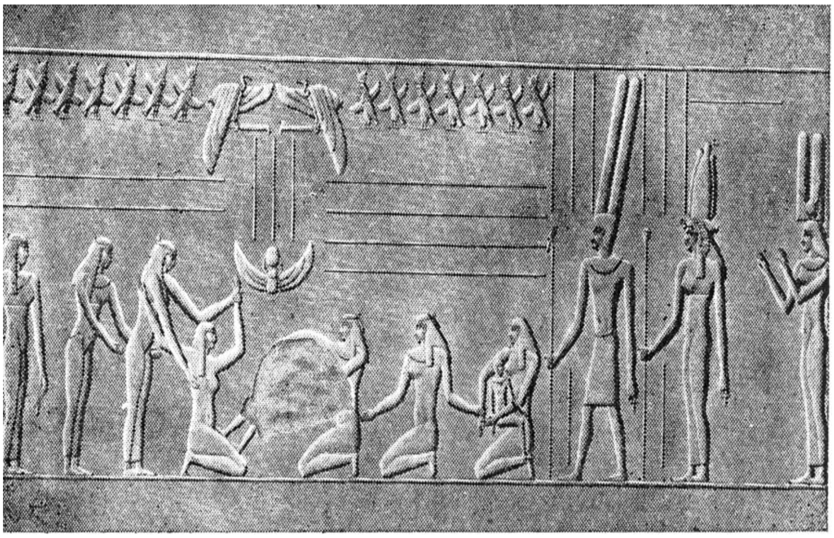
المرآة غازات من الخلف، دل ذلك على أنها ستحمل، أما إذا تقيأت فلا أمل في حملها...

وكان لديهم طرق عدة لتشخيص الحمل ولمعرفة نوع الجنين. وهذه الطرق بعضها أشبه ما يكون بالسحر والبعض الآخر له أساس علمي. وكل تفكيرهم في هذا المضمار كان مؤسساً على فكرة واحدة هي أن الجسم الذي يضم جنيناً ذكراً لابد وأن يكون مختلفاً عن الجسم الذي يحمل جنيناً أنثى. وكان الأطباء يوصون في تشخيصهم للحمل بوضع بول المرأة الحبلى على مقدار من القمح. وآخر من الشعير فإن نبت القمح كان الجنين ذكراً وإن نبت الشعير كان الجنين أنثى أما إن لم ينبت كلا النوعين من الحبوب كان ذلك دليلاً على عدم وجود الحمل.. كما كانوا يضعون البول على مواد مختلفة ويشخصون الحمل إذا لم تحدث عفونة ولم تظهر ديدان.

ويوجد في أرمنت نقش على جدار أحد المعابد يرجع إلى عصر البطالسة (شكل ٤١) وهذا النفش يصور الطريقة التي كانت متبعة في الولادة، فالمرأة الحبلى ساجدة ووراءها ثلاث نساء هن الآلهة (نيث) ومساعدة لها ومتفرجة تحمل في يدها رمز الحياة عنخ.. وأمامها المولدة والمرضعة والخادمة التي تتعهد المولود بالرعاية في طوره الأول.

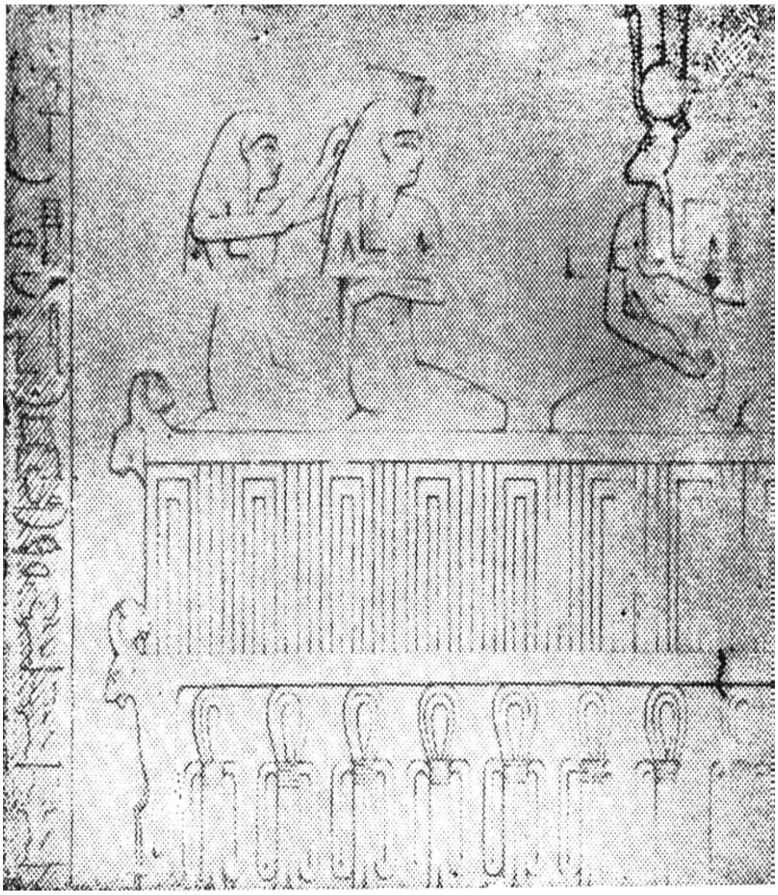
وكانوا يعتبرون أن المجيء بالرأس هو الطبيعي كما هو ظاهر في (شكل ٤١) ومن الحرف الهيروغليفي الرامز للولادة وهو يمثل المرأة

الحبلى وهي ساجدة والوليد خارج من بين فخذيها برأسه 𓄟 وذراعيه، إلا أن هذا الرأس وهاتين الذراعين رأى فيها الآخرون بقايا حرف (مس) ومعناه الولادة.



(شكل ٤١)

وهناك رسوم أخرى تمثل الملكة وهي ساجدة في نفس الوضع على سرير رسمي وأمامها الأمير الوليد والمولودة (شكل ٤٢).



(شكل ٤٢)

كما أن هناك كتابة هيروغليفية لمحل الولادة ترجع إلى القرون المتأخرة وهي أكثر دقة في رمزيتها إذ تصور علامة الولادة يعقبها حجران للتخصيص ، وبخصوص الحجرين فقد جاءت في بردي تورين الحملة التالية: (الحجر الأحمر)، ولنذكر في هذا الصدد أنه جاء في التوراة بمناسبة قتل أولاد اليهود الذكور الذي أمر به فرعون: "وانظروا

إلى الحجرين فإذا كان الطفل ذكراً فاقتلوه. والظاهر في كل هذا أن المرأة الحامل كانت تلد وهي راكعة على حجرين بينهما فراغ، وما كرسي الولادة الحالية – من حيث الشكل – سوى هذين الحجرين موضوع عليهما حجر ثالث مستعرض. وقد ظهرت على نقش بارز موجود في متحف القاهرة امرأة قرب موعد ولادتها فجلست في مقصورة وذراعها مبسوطتان ويداها على فخذيها وتسندها الهتا هاتور (شكل ٤٣)، إلا أنه لم يصل إلينا أي كرسي من تلك الكراسي سوى الذي اكتشف في القرنة (شكل ٤٤) في مقبرة "خيموزي" وقد قال بعض العلماء أنه كرسي لقضاء الحاجة وليس من تلك الكراسي التي كانت مخصصة للولادة.



(شكل ٤٣)



(شكل ٤٤)

وروي بردي وستكار قصة امرأة وضعت ثلاثة توائم.. كما يوضح كيفية قطع الحبل السري وغسل الوليد... ويضيف أن الأم قد عادت إلى السهر على شئون بيتها بعد أن طهرت نفسها أربعة عشر يوماً.

وكانت أم الوليد ترضعه فترة طويلة تصل إلى ثلاث سنوات، أما المرضعات المحترفات فلم يكن يستخدمن إلا في الأسر الثرية. وربما كانت إطالة فترة ترجع إلى عدم الرغبة في الحمل المتتابع.

وفي بردي يبرز توصية بملاحظة جودة اللبن والأسس التي يكون عليها التكهن بمصير الطفل. هل سيعيش أم سيقضي نحبه. وتشير لفائف برلين وأيبرز إلى عدة أدوية لعلاج أمراض الأطفال التي من بينها الاضطرابات التي تقترن بظهور الأسنان وكانت تعالج بإعطاء الطفل أو أمه فأراً مطهياً. والذي يؤكد تطبيق هذه الوصفة هو أنه عثر فعلاً على بقايا فأر في أمعاء طفل عاش في العصر الذي سبق الأسر.

وهذا الدواء بالذات قد وصفه ديوسقوريد وكذلك الإغريق من بعده فالرومان، والأقباط والعرب.. بل والأوروبيون أيضاً قبل القرن السابع عشر بعد الميلاد.

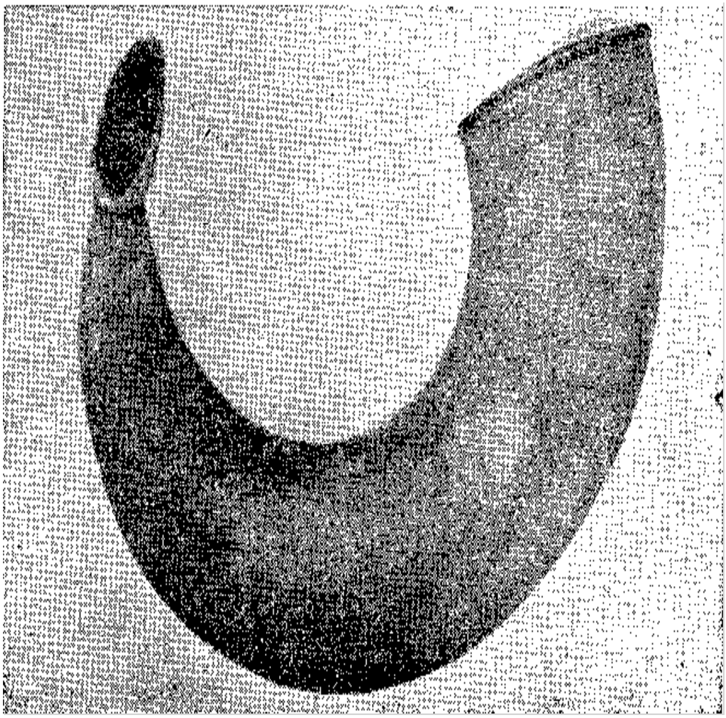
أمراض النساء :

تناولها جزء كبير من بردي أيبرز. وثلاث صفحات بردي كاهون. وخمسة أسطر في بردي برلين وعشرة أسطر في بردي لندن وسبع قطع في بردي كارلزبرج.

وليس من شك في أن كل ما ورد عن أمراض النساء قد نقل من المجموعة الطبية التي ذكرها كليمان الإسكندراني وقال عنها أن الجزء الخامس منها مخصص للرمد والسادس مكرس لأمراض النساء.

ومن المؤكد أن الزواج المبكر والولادات المتعددة في سن حديثة والأعمال المرهقة التي تقوم بها المرأة قبل الولادة وكذلك حدوث هذه

الولادة بواسطة القابلات، كل هذا قد أسهم في مضاعفة عدد الأمراض التي كانت تصيب المرأة في مصر القديمة. وكانوا يعتقدون أن أعضاء الحوض عائمة متجولة في التجويف الباطني فكان يتحتم عليهم في حالة المرض إرجاع الرحم إلى محله وإغراؤه على ذلك بأن تقف المريضة ويبخر تحتها بشمع معطر.



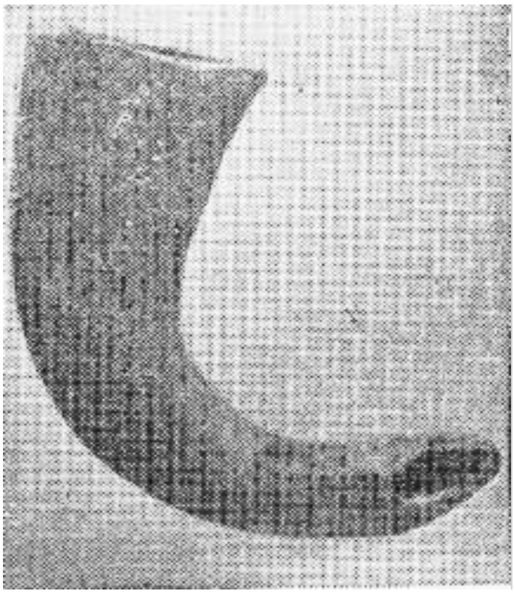
(شكل ٤٥)

وقد وصف المصريون سقوط الرحم وعلاجه إما بالتحاليل أو بالتبخيرات المهبلية بالغائط المجفف والتربنتين أو بتمثال من الشمع

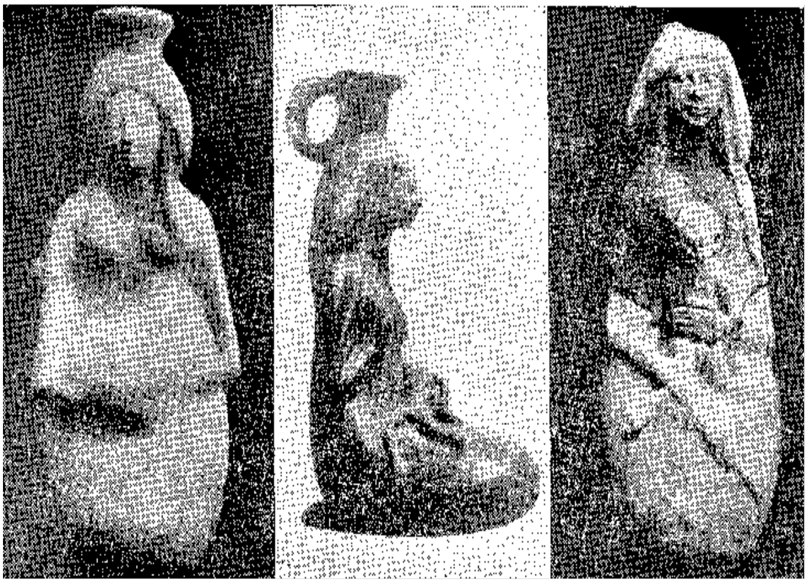
على شكل أبي منجل، كما وصفوا الحقن المهبلية بعصير بعض النباتات لالتهاب الرحم واتساع عنق الرحم، أما المرض الذي سموه بآكل الرحم – فكان علاجه موضوعياً.

وقد عزا المصريون إلى مرض الرحم إعراضاً عدة مثل الآلام التي تصيب أسفل البطن والرقبة والأذنين وأمراض العيون والنوبات العصبية، ووصف بردي كاهون بالتحديد مرضاً يشمل التهاب الرحم وآلام المفاصل والعينين ولعل هذا يطابق ما يسببه السيلان من الالتهاب الموضعي والروماتيزم المفصلي والتهاب العينين.

وقد وجدت آلات تشبه القرن المجوف ولها طرف (شكل ٤٥، ٤٦) على شكل ملعقة أو منقار الطير وفيل عنها إنها كانت تستعمل لمناولة المشروبات للمرضى إلا أن الرأي استقر الآن على أنها كانت تستعمل إما للحقن الشرجية أو للحقن المهبلية إذ قيل بصدد إحداهما "يعمل مزيج من العسل والزجاج المدقوق لإفراغ كل ما في داخل المرأة" وقد وردت تلك الآلة على حجر السيدات الممثلة على الإناء المخصص لجمع لبن امرأة التي أنجبت طفلاً ذكراً والذي كانت تسند إليه فوائد علاجية ممتازة (شكل ٤٧).



(شكل ٤٦)



(شكل ٤٧)

من أمراض الرأس

كان المصريون يعرفون الجمجمة والأم الجافية والمخ والسائل النخاعي. وكانوا يعتقدون أن ثمة أربعة شرايين تمده بالغذاء أو على أحد قولهم "تمنحه الراحة" من ناحية وتسبب الصلع من ناحية أخرى. ويقول هيرودوت أن الصلع كان منتشراً ولنذكر أن أمينوفيس الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني كانوا صلعاً وأن الملكة نفيرتاري كانت تزداد بشعر مستعار.

ولقد عالج المصريون الصلع بزيت الخروع كما نفعل نحن في الوقت الحاضر. وكانو يخلطونه بدهن فرس النيل والتمساح والقط والثعبان والتيس البري وكذلك بمخالب الكلب وحافر الحمار.. الخ.

ووصف المصريون الصلع البقعي (الثعلبة) وعالجوه بمراهم خاصة مصحوبة بتعاويذ موجهة إلى الشمس التي كثيراً ما صورت على شكل شخص يمسك بشعر عدو شرير قبل أن يذبحه.

وكانت تستعمل مواد غريبة لعلاج الصلع منها ما تختزنه الأظفار من قذارة وغائط الذباب ولنذكر أن ديسقوريد استعمل رأس الذباب لنفس هذا الغرض.. ومنها المراهم السحرية المركبة من دم الثور وأحشاء الشيلان والأعضاء التناسلية للكلبة.

والصداع النصفي كان يعالج بدهن الرأس برأس سمكة مقلية وهذا على سبيل السحر لتحويل الألم من رأس الإنسان إلى رأس السمكة.

الأنف:

كانت هناك عدة أنواع لعلاج ما يصيبه من زكام أو عطاس ولقد وصفت أعراض الزكام وصفاً دقيقاً في التعويذة التالية: "انصرف يا ابن الزكام الذي يكسر العظام ويهشم الجمجمة وينخر المخ وينصب المرض في فتحات الرأس السبع (أي يسيل مخاط الأنف والدموع ويحدث التهاباً في الأذنين والفم) لقد أحضرت لك جرعة خاصة ضدك ..الخ". أما الدواء فكان مركباً من لبن امرأة وضعت ابناً ذكراً ومن صمغ ونبات لم يعرف نوعه حتى الآن ونوى البلح.

عن الأذن:

كانت الأذن تعتبر من أعضاء الجسم الهامة إذ أنه كان يعتقد أن روح الحياة تدخل من الأذن اليمنى ونفس الموت من الأذن اليسرى وكانوا يعالجون أمراضها بالزيوت والأصماغ.

عن الأسنان:

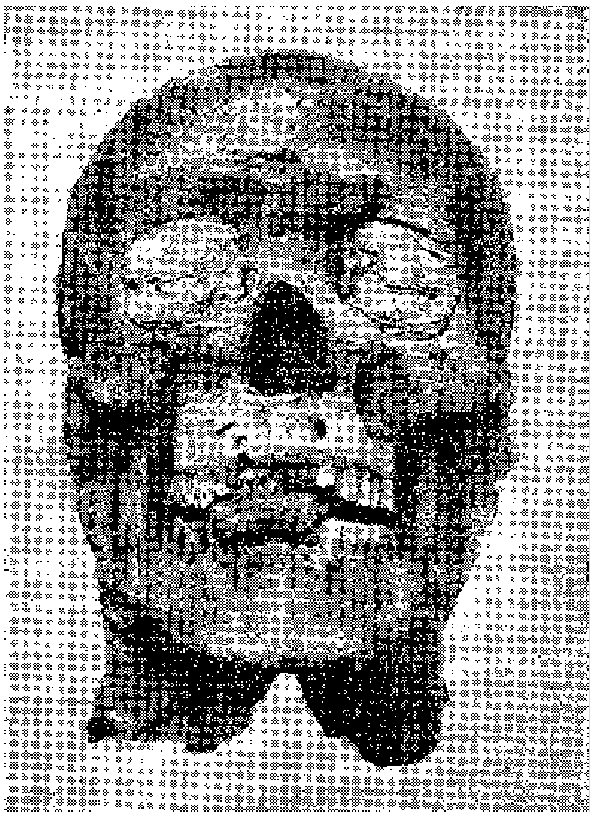
ذكر لناهيورودوت من بين ذكرهم من الأخصائيين أخصائي الأسنان وكانوا على درجات مختلفة، فمنهم الطبيب العادي "منقورع عنخ" (شكل ٨) وجاء ذكره في مصطبة "ني عنخ سمخت" طبيب الفرعون، ونفريوتيس

الذي ذكر في مصطبة "سبشات حتب" مما يدل على مركزهما الثانوي بالنسبة إلى صاحبي المقربين، ومنهم رئيس الأخصائيين مثل "حيزيرع" و"بساميتك سنب" (شكل ٤٨).



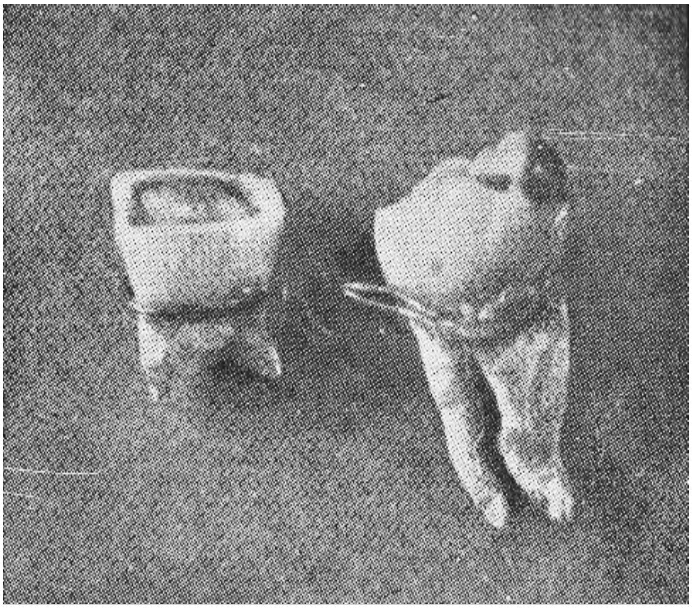
(شكل ٤٨)

وبالرغم من أن "التسويس" كان نادراً فإن (البيوريا) والحراجات كانت منتشرة لا سيما في العصور القريبة وقد ازداد هذا الانتشار بتقدم الحضارة وزيادة الترف حتى في الطبقات العليا كما هو ظاهر من جمجمة أمينوفيس الثالث (شكل ٤٩) الذي قال عنه أليوت سمشث مازحاً بعض الشيء بعد أن اكتشف غشاء من الطرامة حول أسنانه وخراجين تحتها: "لم يواجه فرعون في ترف طيبو دسائس الكهنة فحسب ولكنه كان ضحية لآلام أسنانه أيضاً".



(شكل ٤٩)

ومن أسماء أمراض الأسنان التي لم يصل علماء اللغة إلى تفسير مدلولاتها اسم "آكل الدم" – وقد فسرها أيبل بالاسقربوط وغيره بالبيوريا، وفي حالة حدوث التسويس كانوا يحشون الأسنان بالعسل والصمغ وسلفات النحاس وكانت الأسنان القلقة تربط بالأسنان المجاورة بها بخيط من الذهب (شكل ٥٠).. وكانت الخراجات تصرف بواسطة تربانة صغيرة في معظم الفك ولم يصلنا أي دليل على أنهم كانوا يخلعون الأسنان إلا أن الأقباط بعدهم كانوا يخلعونها بالحديد بعد وضع مخدر من نبات الخربق على الخد أو على جذور الأسنان، ولتقرح اللثة كانوا يصفون المراهم المركبة من اللبن والبلح الطازج والخروب الجاف أو الأيسون والتربنتين وثمار الجميز.



(شكل ٥٠)

عن الرئة:

يؤخذ من لفافة أيبرز أنهم كانوا يعتقدون وجود صلة بين الرئة والمعدة ويبدو ذلك من بعض طرقهم في العلاج كبلع بخار الماء الساخن.. وقد كانت أغلب أدويتهم لأمراض الرئة مكونة من اللبن أو الزبد أو العسل.. وجدير بالذكر أن هذه المواد جميعاً تستعمل حتى يومنا هذا لتجفيف حدة السعال.

عن الطحال:

لم يذكر يبرز عن الطحال سوى جملة واحدة هي أن هناك أربعة شرايين بالطحال تمده بالماء وتنقل إليه الهواء.

عن الكبد:

لم يعرفوا عنه شيئاً كثيراً إلا أنهم كانوا يصفون لعلاجه تناول التين والجميز يُوصون باستعماله لعلاج عمى الليل.

عن الكليتين:

لم يأتي وصف لهما.. وربما يرجع ذلك إلى مركزهما في الجسم فإنه لوجودهما خلف البريتون صَعب عليهم وصول أيديهم إليهما من الأمام أثناء عملية التحنيط، (دبيت) وهي أقرب كلمة لمعنى الكلى فكان معناها (القطن).

على أنه وصل إلينا وصف للمثانة فقد عرف أنها تتصل بشريانيين كما عينت أدوية كثيرة لعلاج احتباس البول أو تعسره وكذلك التبول غير الإرادي والالتهاب الذي يصيب المثانة.. ومعظم هذه الأدوية كان يعتمد على نباتي الكرفس والبقدونس.

وقد ورد في بردي سميث (رقم ٣١) وصف التبول غير الإرادي وانتصاب الذكر نتيجة لانتقال فقرة في الرقبة كما ذكر البول الدموي أكثر من مرة وربطوه بالقلب وعالجوه بعلاج للبطن والقلب.

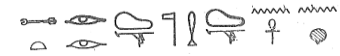
الرمد:

لقد كانت أمراض العيون شديدة الانتشار كما هو شأنها اليوم وكان عدد الأكفاء كبيراً وكثيراً ما نجدهم ممثلين في النقوش وهم يزاولون مهنة الغناء أو الموسيقى وهذا نوع من التأهيل.

فلا غرابة إذن أن يكون جزء كبير من لفائف البردي قد خصص لها.

وهكذا نجد مائة وصفة مدونة في لفافة أيبرز من بينها واحدة تنسب إلى آسيوي من ببلوس. وقد نقل بردي كارلزبرج بعض هذه الوصفات، وكان أطباء العيون في حماية "تحوت" الذي شفى عين هوروس بعد أن كان سيت الشرير قد مزقه إلى أربع وستين قطعة وكذلك

في حماية آمون الطبيب الذي يشفي العيون بغير دواء آمون فاتح العينين المخلص من الحول.

ولكن الإله الخاص بأمراض العين هو "دواو" وكان يعبد في "أيونو" وهي عين الشمس ونرى في (الشكل **٥١**) حملة علمه وعليه شارته الدالة عليه. كما نرى هذه الشارة في ألقاب أحد كهنته (شكل **٥٢**) "ني عنخ دواو" (الحياة ملك لدواو)  وممن ذكروا أيضاً من أطباء العيون "ميدونفري" وكان أيضاً من كهمة دواو وبالإضافة فقد كان في نفس المعبد كهنة (أواب) الذين ليس لهم أي اختصاص طبي. إلا أن العصور المتأخرة استبدلت في "أيونو" (دواو) بهوروس دمنهور الذي انتقل فيما بعد من أيونو إلى ليتوبوليس وهي أوسيم على شاطيء النيل الغربي أمام عين شمس.



(شكل ٥١)

وقد كان "ايري" و"أواي" و"مدونيفر" المذكورون يعالجون العيون مع سائر أجزاء الجسم.. ولم يصل إلينا ممن كرس كل نشاطه لعلاج العيون سوى اسم "ني عنخ دواو" وهو من عصر الأسرة الخامسة والظاهر أن العلاقة الوطيدة بين الوظائف الخاصة بطقوس "دواو" في عين شمس والإله منتى إرتي إله أوسيم (ليتوبوليس) والمتعلقة بعلاج

العيون مبنية على العلاقة بينهما في الأساطير – حيث حكى أن هوروس الناشيء في دمنهور والذي حل محل دواو في عين شمس أعطى عيناً من البلور الصخري إلى منتي – ايرتي بعد أن فقد بصره.



(شكل ٥٢)

وكانت دراية المصريين بأجزاء العين الداخلية دراية سطحية ما عدا الجسم الزجاجي وقد ترتب على ذلك بالطبع أنهم لم يطلقوا أسماء على هذه الأجزاء..

وكانوا يسمون الحدقة (الفتاة التي داخل العين).. وهذه التسمية نجد مثلها في اللغة اللاتينية pupilla أي "الفتاة القاصر وفي اللغة الأسبانية nina de los ojos وكانوا يظنون أنها منبع الدموع، أما الجفن فكانوا يطلقون عليه" ظهر العين" وقد أدت قلة الاصطلاحات الفنية التي وصلت إلينا عن العيون إلى صعوبة تفهمنا لكنه الأمراض المشخصة.

ولنذكر الآن بعض أمراض العيون كما عرفها وعالجها المصريون:

١- التهاب الجفون: وقد عالجوه بنقط من الصبر والنحاس وورق السنط تقطر في العين بواسطة ريشة نسر.

٢- مرض الشعرة: (shenenimert) وقد خصصت له فقرة في أيبرز وكان يعالج بتعديل وضع الرمش أو بنتفه ثم بمرهم مصنوع من دم البرص والخفاش وصفرة العصافير.

٣- الـ (pedeset) ومعناه غالباً الدمل (الشحاذ).

٤- الشتر أو انقلاب الجفن للخارج – وعلاجه المواد القابضة.

٥- الرمد الحبيبي: وقد سموه (nehat) وكانوا يعالجونه بالجرانيت والنطرون الأحمر المحروق وكبريتات الرصاص.

٦- الصنفر (pterygion) وعلاجه بيض الرخم (النسر) وحجر الصوان الأسود وغائط البجع والتمساح.

٧- دهن العينين - غالباً هو الـ (pinguecula) وتمدد الحدقة وله علاج.

٨- العنبة (staphyloma) .

٩- التدمع (hetae) والسحابة (البياضة) التي أصيبت بها الملكة نفرتيتي آية الجمال.

١٠- الكتراكتا وقد سموه: "صعود الماء إلى العين". ونحن نسميه اليوم الماء الأبيض -كما أطلق عليه الإغريق والرومان اسم الماء الأبيض - وعلة هذه التسمية أن المصاب بهذا المرض ينظر وكأن سائلاً يحول بينه وبين رؤية الأشياء...

وكان مرض الماء هذا يعالج بمراهم معينة وبعض التعاويذ.. ولم يقدر له أن يعالج بالجراحة بعد ذلك إلا في القرن الثاني بعد الميلاد وكان ذلك في الإسكندرية حيث نقل (انتيل) الطريقة الجديدة عن كريزيب بقبرص.

أما جروح العيون فقد جاء في ذكر أدويتها غائط الأطفال المجفف.

وقد ظهر في رسم لمصنع أيبي شخص يضع قطرة في عين مصاب وقد قال عنه آخرون أنه ينتزع منه جسماً غريباً (شكل ٧).

وجاء في لفافتي أيبرز ولندن ذكر مرض "عمي الليل" وكان يعالج بالسحر وبكبد البقرة بعد تدخينه وهذا العلاج ليس بالخيالي إذ أن الكبد يحتوي على كميات كبيرة من فيتامين (أ) وهو أحسن علاج لهذه الحالة، كما ورد في أيبرز كذلك فقدان البصر وقد وصف لعلاجه وضع ماء عين خنزير في الأذن وترتيل تعويذة فحواها أن العين تستبدل بالعين.

على أن أكثر أنواع العلاج كان مركباً من كبريتات الانتموان وكحل صدأ النحاس وسلفات النحاس (gesfen) وكبريتات الرصاص.

العلاج:

ذكرنا فيما سبق الكثير في العلاج ويمكننا الآن تقسيم طرق العلاج التي كانت تستعمل إلى:

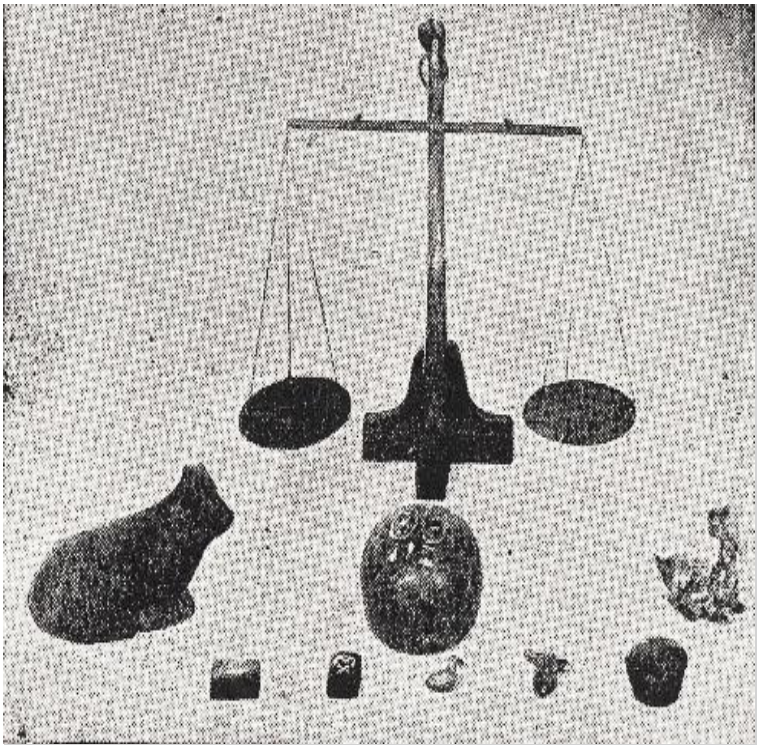
١- العقاقير التي تستعمل من الداخل مثل الشراب واللعوق ..الخ.

٢- المراهم وغيرها من الأدوية التي تستعمل من الخارج.

٣- الجراحة وتشمل خياطة الجروح وربطها بالأربطة اللصاقة واستعمال الجبائر وإجراء العمليات الجراحية.

٤- الأربطة والتدليك والحركات العلاجية.

٥- السحر والتعاويذ.

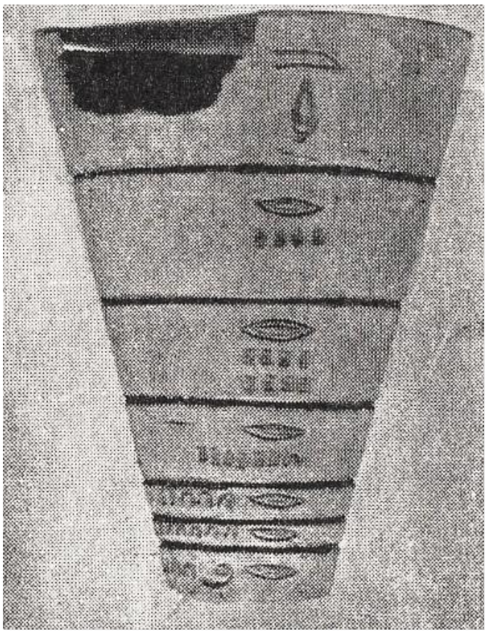


(شكل ٥٣)

العقاقير:

لعل استعمال العقاقير يعتبر مثلا طيباً لتأثير النظريات الدينية على الطب.. وكانت معلومات الكهنة في الكيمياء – كما ذكرت – تسمح لهم بتجهيز الكثير من العقاقير كالمراهم وغيرها. ويمكن القول بأن تركيب الأدوية وتعاطيها كانا دائماً مرتبطين بالدين فأن العقاقير كانت تحضر في معمل خاص في المعبد اسمه "أسيت" في جو تشيع فيه السرية المطلقة والطقوس الجامدة التي لا مرونة فيها وليس أدل على

ذلك من أن بعض الأرقام كانت تتميز بأهمية خاصة دون غيرها كأن تتناول الأدوية أربع أو سبع مرات في اليوم... وكما كانت الحال بالنسبة للعقاقير المركبة التي كان يخضع تركيبها لنسب معينة مثلاً... ١: ٢: ٤: ٨: ١٦: ٣٢: ٦٤ وكانت تراعي الدقة المتناهية في الوزن فقد وجدت مثاقيل يزن بعضها ٢,٠جم (شكل ٥٣) ومكاييل للسوائل (شكل ٥٤) – ومن مظاهر هذه السرية أن كثيراً من العقاقير كان لها أسماء سرية لا يعرفها إلا فئة مختارة فقد سميت مثلاً الأبسنت بقلب الرخم والكروكوس بدم هيراقل.. الخ، مما زاد في صعوبة تفسير النصوص القديمة، وقد جاء ذكر ما يقرب من ٥٠٠ نوع منها:



شكل (٥٤)

١- المواد المعدنية: مثل الحجارة الكريمة (الفيروز خاصة) والذهب والفضة للطلاسم والشب وأملاح الانتموان وكاربونات النوشادر والجير وكاربونات الجير وصدأ النحاس (الزنجار verdigris) وأملاح الحديد والمانيزيا وسلفات الزئبق وأملاح الرصاص والبوتاسا والصودا.

٢- النباتات: وقد تعرفنا عليها أولاً من النقوش حيث رسمت أحياناً بجوار أسمائها، ومن المقابر حيث عثر على بعضها مثل الخردل والخشخاش بجانب الموميات، ومن النصوص القبطية. ولكن الكثير منها لا يزال غامض المعنى ولا سيما أن بعض الأسماء كانت سرية. ومن المواد المعروفة السنط والابسنت ورجل الذئب (acanthus mollus) والصبر واللوز والشبت والأيسون وشعر الجن والبابونك (وزيته كان يستعمل للتدليك) والخروب (واستعماله كمقو للباه وطارد للديدان ومحل للأدوية) والقرطم والشُشم (وهو يستعمل حتى الآن في مصر والسودان لعلاج الرمد) - والكولشيك وحب الهال (الحبهان) والكمون وعدة نباتات من فصيلة القرع والهندباء والحلبة والتين والعرعر والجنطيان والأرمان والحشيش والسكران والكتان والزنبق واللفاح والنعناع والخردل والمر والعفص وجوزة الطيب وحبة البركة والأفيون والبلح والفستق والفجل والخروع والزعفران وبصل العنصل والأصماغ والاستراك (لبنى الرهبان).

٣- المواد الحيوانية: العسل ولبن البقرة والحمارة والماعز والمرأة ولقد اعتبر المصريون القدماء في جميع عصورهم أن لبن النساء عامة

أرقى من لبن الحيوان ولكنهم كانوا يحلون في المرتبة الأولى لين المرأة التي أنجبت طفلاً ذكراً وبعدهم فإن إيبوقراط أوصى أيضاً بإعطاء الـ (gala gynecos kourôtrofon) كما أوصى الأقباط وعرب مصر من بعده.

ولما كانوا يعتبرون هذا اللبن سائلاً ثميناً فقد كانوا يضعونه في أوعية مصنوعة على شكل امرأة تحمل على ركبتيها ولداً وقرناً مثل الذي وصفناه من قبل (شكل ٤٧)، وقد استنتج علماء الآثار من النحافة الشديدة الظاهرة في أسفل جسم هذا الطفل أنه يمثل الطفل الهزيل الذي رزقت به إيزيس من أوزيريس والذي كان ضعيفاً لأن أوزيريس أتى زوجته بعد وفاته.

ومن المواد الحيوانية الأخرى كبد الثور والعجل والخنزير وكان يستعمل لشفاء عمى الليل، ورأس وصفراء بعض الأسماك، والمخ وشحم الحيوانات وإفرازاتها... الخ مما ذكرنا الكثير منه سالفاً.

وكانت أغلبية الوصفات مركبة من أصناف عدة ومكونة من القاعدة أي الجوهر الفعال مضافاً إليه المصحح (corrective) والسواغ (excipient) وكانوا يصفون العقاقير على شكل شراب أو مغلي أو منقوع أو حبوب أو مسحوق أو لعوق للاستعمال الداخلي وللاستعمال الخارجي كانوا يستعملون اللبخ واللزق والنقط (القطرة) والمراهم والاستنشاقات والتبخير واللبوس والغسول الشرجي والمهبلي وكانوا

يستعملون لهذا الغرض آلة على شكل قرن مجوف ينتهي طرفه المدبب على شكل ملعقة أو منقار طير (شكل ٤٦) وقال المصريون أنهم اكتشفوا العلاج بالحقن الشرجية عندما لاحظوا طير الحارس (أبو منجل).. هو يدخل منقاره الطويل في شرجه لتنظيف أمعائه.

وكان الطبيب يعد الأدوية بنفسه حتى أن الكتابة الهيروغليفية للطبيب كانت مكونة من المفصد والهاون. ولم يعتادوا كتابة "الروشتات" (التذاكر) للمرضى والغالب أن قطع الخزف (ostraca) التي وصفها جونكير والمكتوب عليها وصفات أدوية كانت في الحقيقة مذكرات يدونها الطبيب بجانب المريض لتذكره فيما بعد بنوع الدواء الذي كان عليه أن يركبه عند عودته إلى منزله.

وأخيراً كانت هناك طرق السحر الذي لا يمكن سبر غوره لما له من امتداد مهيب في ظلام ذهن الإنسان.

السحر:

قلت أن الطب عند قدماء المصريين كان يعتمد في بعض أطواره على السحر وأحب الآن أن أشير إلى أن هذا السحر كان كثير الأشكال، متعدد الأساليب!

١- قد يركز على الروح حين يقال لها مثلاً: "أخرجي يا كاسرة العظام، يا متسللة إلى الشرايين"... وقد يوجه إلى المرض نفسه كأن يقال

له: "أبصق، تقيأ، اهلك..." وهو في ذلك لا يخلو من الطرافة... اسمعوا:

"أحضرت لتقبيل هذا الطفل؟... لا، فلم أسمح لك بتقبيله..."

"أتيت لإصابته بضر؟.. لا فلن أبيح لك أن تنزل به ضراً..."

"أأقبلت لتأخذه معك؟.. لا، فلن آذن لك باصطحابه.."

"أني أحضرت لك دواء من العسل وهذا ما يأتي بك شراً ومن البصل وهذا ما يأتي بك ضراً... عسل حلو المذاق للأحياء ولكنه مر للأموات".

٢- وكان السحر يعتمد دائماً على قوة اللفظ، وعلى العنف في إلقائه، وكذلك على خواص الأسماء... من هنا كان الساحر يهتم بمعرفة اسم عدوه، أي اسم المرض، لأن معرفة هذا الاسم كانت تمنحه قوة وتعينه على التركيز.. استمعوا إليه مثلاً وهو يقول: "إني أعرف اسمك.. ألا أعرف اسمك؟...

بل إنه كان يلجأ إلى التحايل عندما يشك في هذه المعرفة بأن يصيح "أأنت خادم؟.. فلتخرج في القيء"... "أأنت نبيل؟ فلتتسرب في البول"...

٣- ولقد كان التهديد من أساليب السحر الفرعوني، ومن مظاهر هذا التهديد تناول الفضلات الروثية ثم إطلاق هذه الصيحة: "أيتها الروح، ذكر أنت أم أنثى، اختفي يا ساكنة لحمي هذا... أخرجي من لحمي هذا.. أخرجي من أعضائي هذه... لقد أحضرت لك هذه الفضلات لتأكليها... فاحترسي يا خفية وأهربي..."

٤- ومن هذه الأساليب أيضاً إدعاء الصحة للتأثير على الروح وإبعادها بالإيحاء وكان هذا الأسلوب يتبع على الأخص في الأوقات التي تنتشر فيها الأوبئة.. كأن يقال: "إني سليم الجسم... أنَّى لي أن أصاب وأنا صحيح البدن؟... لقد شاهدت الكارثة الفادحة ولكنها لم تصبني بأذى... إني أنا الذي خرجت من هذه الكارثة سليماً معافى".

٥- ومن هذه الأساليب كذلك الالتجاء إلى الآلهة لطرد الأرواح الشريرة...: "السلام عليك يا هوروس... يا أيها الموجود في بلد المئات... يا حاد القرنين، يا بالغ الهدف... إني قصدتك لأمدح جمالك... إلا فلتقض على الشيطان الذي يتملك جسدي".

٦- قلت أنه كان يلجأ أحياناً إلى الآلهة، وأزيد الآن أن ذات الإله كانت تنتحل أيضاً كما ورد في بردي أدوين سميث، كأن يقال: "أغربوا يا شياطين المريض... لن يصيبني الهواء... إني أنا هوروسس الذي يمضي في طريقه أمام سخمت... إن هوروس صحيح سليم بالرغم من سخمت... إني ابن بستيت الوحيد.. لن أموت بسببك."...

٧- وإن ذات الإله كانت تخلع على المريض كأن يوجهه إليه هذا الكلام (برلين): "أنت هوروس... وأنت تستيقظ كهوروس..".

٨- بل كان يمنح كل عضو من أعضاء المريض صفة إله من الآلهة... كأن يقال: "إن قمة رأسك هي (رع)، وأن قفاك هو أوزيريس، أذناك حيتان، ذراعك هوروس، سرتك نجم الصباح (الشمس)، ما عضو فيك إلا وهو إله، وكل إله يحمي اسمك، وكل ما فيك...".

وهنا يجدر بي أن أقف قليلاً لأذكر أن لا غرابة في ذلك، فإن نظرية تقسيم الجسد إلى ست وثلاثين جزءاً أو أكثر كل منها يحظى بحراسة إله... أقول أن هذه النظرية كانت سائدة... ولما كانت الآلهة ترمز كذلك إلى عناصر الكون من أنهار وكواكب وجبال.. الخ. فقد أدى ذلك إلى نشأة علم تشريح يعتمد على الأساطير ويربط بين كل عضو وإله وعنصر من عناصر الكون... ومن العجيب أن أثر هذه الرمزية لا يزال باقياً حتى اليوم في أسماء أجزاء الجسم... ومثال ذلك جبل الزهرة، وفقرة الأطلس... الخ.

٩- هناك كثير من التعاويذ التي كانت تعتمد على أساطير الآلهة... فمثلاً لإيقاف نزف الحيض (أتى أنوبيس ليمنع النيل من دخول المعبد حتى يحمي من كان داخله). وفي ذلك تشبيه الحيض بفيضان النيل.

١٠- ثم أنه كانت هناك تعاويذ تنطق بلغة أجنبية (بردي لندن) وهذا يرجع إلى أن هذه التعاويذ كانت دخيلة على مصر أو إلى أنها كانت تستخدم ضد أرواح أجنبية.

بقى أن أقول أن تلاوة التعاويذ كان محتماً أن تكون مصحوبة بحركات معينة، ومرتبطة بشروط خاصة تتصل بموعد قراءتها، وبكيفية هذه القراءة وبالأشياء التي تقرأ عليها وكذلك بطريقة استعمال هذه الأشياء وبزي القاريء وما ينبغي عليه من نظافة اجتناب النساء وتناول أطعمة معينة... ثم أن بعض هذه التعاويذ أو العمليات السحرية كان يقرأ على نماذج من الشمع تمثل المريض أو العضو المصاب. وكل ذلك كان يقترن عادة باستعمال الأرقام السحرية مثل رقم أربعة أو سبعة، وبالعقد المربوط على الحبال والأقمشة وبالماء المقدسة وبالمبيت وفي كهف المعبد والإيحاء بظهور الإله أثناء النوم.

ولعل قيمة السحر في مصر القديمة لا تبرز على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن المصريين كانوا يعتقدون منذ الحقبة الروحانية من تطورهم أن كل شيء في الطبيعة مشحون بقوة سحرية وله قوة خفية خاصة.

الختام

ربما ظن أن اختتامنا هذه السلسلة القصيرة من المحاضرات بالسحر والتعاويذ يوحي بأن الطب عند قدماء المصريين كان جلة من نسج الخيال والأوهام، والحقيقة على نقيض ذلك لقد كان المصريون عمالقة في كل شيء.. ولقد انفردت حضارتهم بأنها خلفت لنا ما يربط حركات التاريخ المتتابعة، وبأنها وصلت إلينا خالية من الثغرات مستقيمة بالرغم من تيارات وتموجات عالم كان في بوتقة التكوين وذلك على عكس حضارات أخرى لم تكن أقل ازدهاراً ولكنها اندثرت، أو انحصرت في نطاقها الضيق فبقيت جديرة بأن تعرض في المتاحف إن صح هذا التعبير.

على أن الأحكام التي نصدرها اليوم عن الطب الفرعوني تعتبر ناقصة وذلك لافتقارنا إلى مصادر كافية للبحث، فما هي الوثائق التي نبني عليها حكمنا. إننا نعتمد على ثمانية مخطوطات هي كل ما وصل إلينا من أربعين قرناً وهذه المخطوطات تختلف قيمتها من واقعية ملاحظات "أدوين سميث" واحترامه للحقائق إلى خرافات وتعاويذ لفافة لندن... فكأن خلفنا في القرن الأربعين سيحكم على طبنا بقراءة مؤلف نسج من موسوعة أوزلر وكتب علم الركة. ولذلك فإنه يتحتم علينا اعتبار

هذه الأحكام أحكاماً مؤقتة أو ناقصة.. فهناك ما اندثر من المخطوطات القيمة.. وما لم يكتشف حتى اليوم... وهناك بيوت الحياة ومكاتبها ونقوشها التي لم يوجد لها أثر والتي دمرها الزمن أو الفاتحون أو المتعصبون.. وهناك كنوز التعليم الشفوي في سراديب المعابد وهو الذي كان يُسِرٌ به الأستاذ في أذن التلميذ بعد أن يستحلفه أن يحفظ السر والتي ذهبت إلى الأبد أدراج الرياح.. وهناك. فإن كل اكتشاف أثري جديد يزيد من تقديرنا لهذا الشعب العظيم ومن إعجابنا به. ولا شك في أن أي رأي يبدي عنهم سوف يتعدل مع مر الأيام في ضوء ما سيعثر عليه في المستقبل من آثار الطب القديم.

وإذا كان المصريون قد نشئوا في جو من الجهل والسرية والسحر شأنهم شأن غيرهم من القدماء فإنهم – مع ذلك –كانوا أول من حاول التخلص من هذه الخزعبلات.

وإذا كنا نأسف لأن المتأخرين منهم قد اكتفوا بتعاليم القدامى فيكفيهم شرفاً أنهم حرصوا على حمل الشعلة وصيانتها إلى أن وصلت إلى أبيوقراط وذريته الروحية.

الفهرس

إهداء وشكر ٦

تقديم ٧

مقدمة المؤلف ١٧

المحاضرة الأولى ٢٤

من البداية حتى عصر الفراعنة ٢٤

الحقبة الثانية: ٢٧

الحقبة الثالثة : ٢٩

الطب الفرعوني : ٣١

لفائف البردي: تاريخها وأصولها ومحتوياتها: ٣٢

أهم لفائف البردي: ٣٥

المدارس : ٤٣

المحاضرة الثانية ٤٩

الأطباء ٤٩

الكهنة: ٥١

الأطباء: ٥٣

الصحة العامة : ٦٤

الختان: ٦٥

النظافة العامة : ٧٠

كيف كانت المساكن في المملكة القديمة؟ ٧٣

علم الأمراض : ٨٣
الأمراض المعروفة : ٨٨
التشريح وعلم وظائف الأعضاء– التحنيط : ١٠٢
فن التشخيص:.....................................١٠٨
المحاضرة الثالثة.................................١١١
الجراحة..١١١
الجروح:..١١٨
الكسور: ١١٨
الحروق: ١٢٥
الأورام: ١٢٦
الولادة : ١٢٨
أمراض النساء : ١٣٤
من أمراض الرأس: ١٣٨
الأنف: ١٣٩
عن الأذن:...١٣٩
عن الأسنان:.......................................١٣٩
عن الرئة: ١٤٣
عن الطحال:.......................................١٤٣
عن الكبد: ١٤٣
عن الكليتين:......................................١٤٣
الرمد:..١٤٤

العلاج: ١٥٠
العقاقير: ١٥١
السحر: ١٥٥
الختام.. ١٦٠